أبطال المنصورة

مسرحية تاريخية ذات اربعة فصول

حول غزوة الفرنسيس دمياط بقيادة لويس التاسع
سنة ١٢٤٨ — ١٢٥١ م

تأليف

ابراهيم رمزي

مؤلف : الحاكم بأمر الله ، وبنت الاخشيد ، والبدوية ، والهوارى ،
والدرة اليتيمة ، والوزير شاور ، ودخول الحمام ، وعقبال
الحبايب ، وأبو خوندة ، وصرخة الطفل ،
وبنت اليوم ، وساميديل (سيناريو) ،
واسماعيل الفاتح ، والفجر
الصادق ، وغيرها من
المسرحيات

الثمن : ٥٠ مليما

أبطال المنصورة

مسرحية تاريخية ذات اربعة فصول

حول غزوة الفرنسيس دمياط بقيادة لويس التاسع

سنة ١٢٤٨ — ١٢٥١ م

تأليف

ابراهيم رمزي

مؤلف : الحاكم بأمر الله ، والبدوية ، والهوارى ، والدرة اليتيمة ، والوزير شاور ، ودخول الحمام ، وعقبال الحبايب ، وأبو خوندة ، وصرخة الطفل ، وبنت اليوم ، وساميدبل (سيناريو) ، واسماعيل الفاتح ، والفجر الصادق ، وغيرها من المسرحيات

ومترجم : قيصر وكليوبتره ، وتيمور لنك ، وريشيليو ، وسجين الباستيل وبزارو ، والقائد المصرى ، وشمسون ودليلة ، وعزة بنت الخليفة ، والامير سليم ، وسياحة حروش بك ، وورقة اليانصيب والتاج ، والملك لير ، وترويض الخرنب وعدو الشعب ، وغيرها

للتاريخ

هذه ثالث رواية وضعتها وكان ذلك فى سنة ١٩١٥ مطاوعة للشعور انبعثه هم المصريين يومئذ لتغيير القوم عاملهم بالرغم منهم وإيقاظا لنفسية كاد يتلفها ما كانوا يلقونه من المذلة والعبث .

ولقد حاولت ما حاولت ليأذن الرقيب بتمثيلها فلم أفلح إلا في ١٩١٨ . فقد تضافر موظفو قلم المطبوعات على رفضها والنيل مني ومنها عند رجال السلطة السياسية والعسكرية فنالوا الحظوة لديهم كما أرادوا وباءوا بعد ذلك بخزي من الله والوطن

وأخيرا مثلتها فرقة الاستاذ عبد الرحمن رشدى لأول مرة في المنصورة تكريما للمدينة التى حدثت فيها واقعة التاريخ الذي أدونه لأبطالها في هذه القصة بقلم التجلة والاكبار بعد أن دونوه لأنفسهم بأسلات السيوف والرماح وجعلوا صحيفته نوراً للمستنيرين فى الحق والوطنية . بيد أنها كانت مرة واحدة مثلت فيها ثم رأيت من واجبي أن أنقل حق تمثيلها الي فرقة ترقية التمثيل العربي

التى كانت في مجرى الانشاء يومئذ فتولت اخراجها فى دارها بحديقة الازبكية وأحسنت تمثيلها. ولكن لم تكن هذه الدار حرة يومئذ فى العمل اذ كانت هناك عوامل تزيغ الدرامة لتحل محلها الروايات الغنائية فاختفت هذه الرواية من الجو المسرحى المحترف وان لم تختف من مسارح الجماعات الهاوية

واذ كان من واجبى أن أنوه بحسنات المحسنين فبفضل زعيم مصر الاقتصادى العظيم محمد طلعت حرب باشا لأنه قدر الرواية قدرها وغالى بها، وبفضل معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا (وكان يومئذ مديرا لتحرير السياسة) اذ عهدت اليه ادارة الشركة بقراءتها ودرسها فأحسن الرأى فيها وأثنى واستحث على تمثيلها والاستزادة من أمثالها لتغذية الروح الوطنية فى البلاد، وامدادها بما هي في حاجة اليه من المثل والعظات. فلهما شكري ودعائي وتحيتي

فبراير سنة ١٩٣٩ المؤلف

أشخاص الرواية

الفارس أقطاى	نائب الأتابك
الأمير جمال الدين محسن الكاظمي	ناظر الخاص
الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري	أمير المماليك البحرية
الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ	أتابك جند مصر
الكاتب سهيل	كاتب شجرة الدر
هبة الله . . . . *	طبيب فرنسي الأصل ربي في مصر
الشيخ برنار . . . . *	صاحب عزبة بناحية فارسكور فرنسي الأصل
الملك المعظم طوران شاه	سلطان مصر بعد وفاة أبيه الصالح نجم الدين أيوب
صبيح	مولى طوران شاه وحارس سجن الملك لويس
الملك لويس	ملك فرنسا وقائد الصليبيين الأعلى

الأمير دارتوا . . . . اخو الملك لويس

الأمير بواتيه . . . . « »

مسعود . . . . * عبد بيبرس

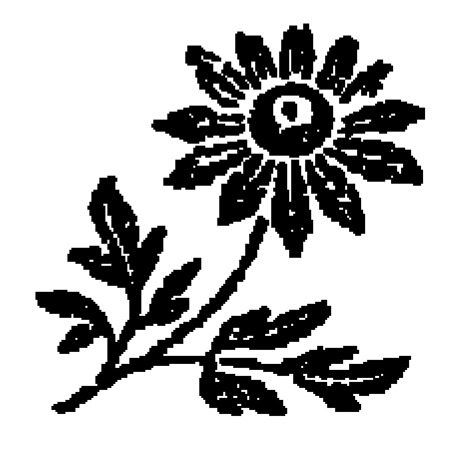
الأميرة شجرة الدر . . . . امرأة السلطان الصالح نجم الدين أيوب

الأميرة صفية . . . . * أخت شجرة الدر

مريم — عائشة . . . . * فتاة تعيش فى عزبة برنار

---

* جميع أشخاص الرواية تاريخيون الا المؤشر أمامه بهذه العلامة



الفصل الاول

المنظر

يزاح الستار عن دار في قصر السلطان الصالح أيوب على النيل في الجانب القبلي من مدينـــة المنصورة . وهو بناء عربي الطراز والتقسيم : ايوان ورحبـة . أما الايوان فواقع في مؤخر المرزح والرحبة في مقدمته ويعلوعنها شبراً تقريبا . والايوان نصف مثمن به ثلاثة أضلاع كاملة في مواجهة المشاهد . وهذه ذات شبابيك أي نوافذ فيها قضبان متعارضة ، عليها من الداخـل سجف (ذات فلقتين) من الديباج الثقيل إذ الوقت شـتاء (١٠ ديسمبر (١) سنة ١٢٤٩) أما الضلعان الجانبيان فكل منها نصف ضلع المثمن

---

(١) ذكر لين بول أن موت الصالح كان فى ٢١ نوفـبر سنة ١٢٤٩ ولـكن جوانفيل الذى كان فى هذه الحملة بوظيفة Constalbe de France أمير جيش الملك ، قال انه كان فى ١٠ ديسمبر من تلك السنة

أو يزيد قليلا وفي كل منها باب قصير (أربع أذرع) مكفت بنقوش عربية من المعدن ... واحد الى اليمين بالنسبة الى المتفرج وهو مؤد الى غرف السلطان وحرمه . وآخر مثله الي اليسار هو مقطع كبار الدولة أي الباب الخاص الذي يحضر منه وينصرف كبار أمناء السلطان وأمراء حرسه الخاص المعروفون برجال الحلقة ومن هم في كرامة المنزلة مثلهم ... وينفصل الايوان عن الرحبة عمد من الرخام تعلوها بوائك موشحة بنقوش عربية مابين البوا كير (الاقواس). والبوائك الثلاث : اثنتان منها صغيرتان هما الجانبيتان وواحدة كبيرة (وتعلو نصف ذراع عما يجاورها) بين هاتين

والمكان جميعه مفروش بأنفس البسط الطبرستانية (الفارسية) إذ الوقت شتاء كما نبهنا ونرى على أبوابه جميعا سجفاً غير مسدلة بل مزاحة الى الجانبين ماعدا باب حرم السلطان . وفي الايوان مقاعد ووسائد فاخرة وضعت دون النوافذ يعلو عليها فى الصدر مقعد كبير يكون للسلطان عادة عند اجتماعه برجال ديوانه . ولكن الدار قد اتخذت تلك الليلة للنوبة أي حراسة السلطان وخدمته المستعجلة لأنه مريض يئس الاطباء من شفائه ولان الفرنجة الفرنسيس وكانت

معهم فرقة انجليزية تحت امرة Longsword وهولورد Salisbury تحت امرة الملك لويس التاسع المعروف فى كتب التاريخ العربية باسم رى ديفرانس أو روا دفرنس تعريب Roi de France قد عاودوا ضرب مصر لامتلاكها توطئة لإسترداد القدس وابادة علم الاسلام من الدنيا (إذ كان هذا مأمول أوروبا فى القرون الوسطي ومناط مجدهم وفخرهم) وقد نزلوا البلاد واحتلوا دمياط (التى أخرجوا منها مدحورين أذلة قبل ذلك بثلاثين عاما على سيوف السلطان الكامل أبى السلطان الحالي وبانى مدينة المنصورة تخليداً ليوم نصره) ويوشك جيشهم أن يزحف على المنصورة في طريقه الى بابليون (مصر القديمة) فالأمر يستوجب قرب أعيان الدولة مناوبة بجوار السلطان في كل وقت .

وإذ كانت العادة أن يتلهي أمراء النوبة فى تلك الليالى بلعب الشطرنج وغيره ويستعينوا على السهر بمذاكرة الشعر ورواية أحاديث الدول وتلاوة القرآن الكريم ومطالعة الحديث الشريف. (*) فان فى المكان خزانة على شكل صندوق اذا أقفل غطاؤه

* عن المقريزي

حسبته مقعداً ذا جانبين واذا رفع الغطاء وجدت فيه نسخا من أعيان الكتب المخطوطة في الشعر والتاريخ والقصص والفقه والتفسير وغير ذلك . وقد أتى بالخزانة في تلك الليلة من « دار الخاص » ووضعت دوين الباب الايسر الاعلى في الايوان بميل وانحراف

وفي المكان في مقدمة المرزح دوين الباب الايمن الادنى ثلاث وسائد صغيرة ثمينة القيمة اثنتان منها الى الامام وواحدة إلى الوراء بينهما على قيد ذراع منها . وقد وضع بين الوسائد الثلاث دست أى صندرق صغير وضعت فوقه رقعة شطرنج صفت عليها قطع من العاج والآبنوس المكفت بالفضة . وفي الدست درج ظاهر للمتفرج قد أخرج منه لتلقى فيه القطع المدحورة ساعة اللعب أو تحفظ فيه بعده

أما الوسائد الثلاث فقد جلس على اليمنى منها الكاتب سهيل مولى شجرة الدر امرأة السلطان وكاتم سرها . وهو فتى في الثلاثين من عمره لا لحية ولا شارب له لانه خصى — قد لبس كلوتة (طاقية مضربة) ظاهرها أطلس رومي أصفر اللون اعتم عليها على غير العادة بشاش من الحرير الاسكندرى الابيض وعلى جسمه قباء

بغلطاق (بلطو) من الحرير الاحمر الرومي مسجف بفرو السنجاب. ومبطن بفرو ثمين وقد تمنطق عليه ببند أبيض من الحرير ويبدو من أسفل البغلطاق المذكور سراويل من الصوف الملطي (الجوخ)، وفي رجليه خفان من الجلد الاسود البلغاري يلبسها بخفين آخرين. من الجلد الرقيق (أشبه بالمز أو هو بعينه) والخف الظاهر ذورقبة عالية نوعا ما وتدخل فيها فتحة السراويل .

وسهيل هذا جالس يلاعب رجـلا أمامه هو الامير الكبير. جمال الدين محسن الكاظمي ناظر الخاص (وهى أرقى مراتب الدولة يومئذ وأسماها) . وهو رجل فى الاربعين من عمره بادن شيئا ما قد. ارتدى كما ارتدي سهيل مع اختلاف في اللون اذ كانت كل ثيابه بيضاء. غير انه قد توشح بحميلة تدلي منها سيف عربي مرصع القراب بشيء قليل. من الجوهر ، وقبضته مكفتة بالذهب وجلس على الوسادة. الثالثة رجل يدل ارتفاع رأسه عن الآخرين على أنه مديد القامة * وهذا هو الفارس أقطاي وهو رجل دوين الاربعين يبدو نحيفا.

---

* كتب التاريخ

الجسم لطول قامتـه . له نظرات حادة مطمئنة تدل على المروسـية والاعتداد بالنفس وهو أصفر شعر الشارب والرأس وملابسه ملابس محسن إلا أن كلوتته من الصوف الأحمر وعمامته مفرعة الى العـلى وكانت مرتبته اذ ذاك نائب الاتابك أي نائب القائد العام .

والى اليسار الأقصى بأدنى المرزح مقعد منخفض عليه وسادة ثمينة ومساند جلس عليه الأمير بيبرس البنـدقداري قائد المماليك البحرية المرابطين حول القصر وهو يطالع فى كتاب امامه قد فتح على كرسي مجنح منبسط بديع النقش والتـكفيت هو القرآن الـكريم .

والأمير بيبرس هذا رجل فوق الثلاثين من العمـر ربعة فى الجسم بلا بدانة، أبيض الوجه مربعه أزرق لون الحدقة له نظرة الأسد فى وقار وكرم وفي إحـدى عينيه كسرة في مؤخرها * تزيده فى عين الناظر مهابة . وهو مرتد قباء (بغلطاق) من الحرير السميك السنجابي اللون عليه أزرار كبيرة من الذهب فى سجفه وهو متمنطق

---

* كتب التاريخ

بحياصـة عريضة من الذهب علق على يسارها سيف عـربي . أما كلوتته فهي من الحرير الاسـود المضرب وعمامته صغيرة مفرعة وخفاه الخارجيان مثبت فيهما مهماز مكفت بالذهب مثل أقطاى .

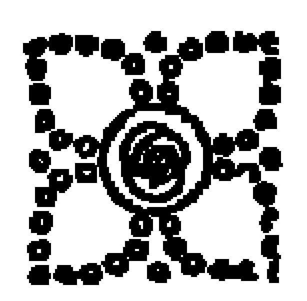
واذ يزاح الستار يرى رجل آتيا من الباب الأيسر الأعلى — مقطع العظماء — ماشيا الهوينا على افريز الايوان وراء الاعمـدة وفي يده رسالة يقرؤها ثم ينزل الرحبة واذ يرى الخزانة أمامه مقفلة الغطاء يجلس عليها ويستمر في القراءة . وهـذا هو الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أتابك الجنـد (القائد العام) ومدير الدولة فى مرض السلطان . وملبسه في جملته مثـل بيبرس الا أنه أزرق اللون . واذا نظر اليه الناظر وجـده فى الخمسين من عمره ينم مجموعه على أنه نضو حروب ظفر منها بمجد وعظمـة جديرة به وبسالف محتـده اذ انه سليل أمجاد وفرسان وقادة عظماء معروفين على مدى سـبعة قرون* ولـكنه في صمته وقلة انشراح نفسه

---

* أنظر تاريخه فى المقريزي

وعدم انقطاع نظره عن الرسالة التى بيده يشعر بأن ضميره مثقل بهم كبير

والمكان مضاء بثريات عظيمه" متعـددة القناديل واحدة فى الايوان وثلاث في معاقد البوائك إلا أنها صغيرة .وأخرى كبيرة في وسط الرحبة يرى تحتها حامل مثمن الاضـلاع مصنوع باللقم والمخاريط الخشبية التى تصنع منها المشربيات عادة وهو شبيه في جملته بكرسى العشاء فى الافراح عندنا .



التمثيل

سهيل : (ناظراً الى الرقعه" يتناول رخ محسن ويلقيه فى درج الدست)

رخ (يلتفت الي الفارس أقطاي) كيف حالك ياأقطاى؟

أقطاى : حال من يرى آماله يقصر ذالها . إن مرض السلطان يقلق بالي ياسهيل . أرأيت هبة الله الطبيب ؟

سهيل : أدخلته الليلة علي السلطان فرخه بمرهم ثم خرج ولم أره وكنت أريد ان اتعرف منه حقيقة الحال

أقطاى : لعمري ما تنصفون اذ تدخلون هـذا الطبيب على السلطان . أم نسيتم انه ابن صليبي قتلناه ؟

سهيل : انه طبيب القصر قبل أن اطرق القصر . ولقـد عشت ما عشت فرأيته يدخل ويخرج بالليل والنهار غير مدافع ولا مستراب ، ويتنقل مع السلطان وحاشية السلطان في الـكرك ودمشق وحمص وحلب وفي كل مكان فهل كان لى أن امنعه اليوم من أن يكون كعهده بالأمس ؟

محسن : (يقدم الفرس) دونك هذا الفرس المطهم . واذا انصفت امتطيته وسرت به الي شواطي دمياط تجد هبة الله هناك

سهيل : (يضحك) ماشأني به هناك ؟

محسن : سله ماذا فعل مرهمه بمولاك؟ وأي خبر من أخبار القصر يحمله الي أهله الأقدمين؟ وسـله كذلك أين تنزل

الاميرة صفيه ؟ (هنا يرفع بيبرس رأسه ويظل ينظر اليه ويشرع فخر الدين جفنه اليه وهو يظل في الورقه) فاذا وصلت اليها فاقرأ الفاتحة على روحها .

أقطاي : وي ! وي ! وي ! ما هذا ؟

محسن : أخبار بسيطة يانائب الأتابك وفارس الفوارس. * كيف حالك اليوم ؟

أقطاي : عجبي ! عجبي ! من أوقع الأميرة صفيه في أيدي الفرنسيس ؟

محسن : علمها عند هبة الله . إنه يقول انها كانت آتيـة من الشام فاعتقلها الفرنسيس في دمياط

أقطاي : ومن أين له العلم بذلك الا أن يكون له بمن اعتقلوها اتصال وثيق ؟

محسن : سل نسوة القصر عن ذلك . ألا تدرى أنه خطب الأميرة اليهن غير مرة ثم خطبها الى من هو أكبر منهن وأعلى ؟

أقطاي : خطب الأميرة صفية لنفسه !

محسن : أجل . أتظن انه يري نفسه في القدر دونها ؟ انه يزعم أنه

---

* انظر تاريخه فى المقريزى

ملك غير متوّج .

اقطاى : ومتى كانت هذه الخطبة ياترى ؟

محسن : ونحن فى حمص

اقطاى : الي اختهـا ؟

محسن : بل الى السلطان نفسه .

اقطاى : وماذا فعل السلطان ؟

محسن : ضحك وضحك وظنها مزحة . ولـكنى علمت انه كان هائما بها من يوم ماحملها بيبرس من بادية بغـداد ، كما كان هائما منذ سبعة عشر عاما بفتاة كريمة كانت زهرة قصر الملك الـكامل ودرته الناصعة ، حتى لقدصارحها بحبه ذات يوم فلطمته على صدغه بنعلهـا لطمة اتلفت له ضرس العقل ، واطارت طائر الرشد من دماغه .

اقطاي : (يضحك) ترى من كانت هذه الفتاة العظيمة ؟

محسن : الا تعرفها ؟

اقطاي : كلا والله

محسن : هى التي بنيت بها انت يا أقطاي .

اقطاي : امرأتي ؟
محسن : امرأتك بعينها.
أقطاي : وي ! وي ! قبّح الرجل ! قبّح ! حقـا انه غير سليم .
ولـكن هل شرعتم تحققون نبأ الأميرة صفيه؟ لعلها أكذوبة يشيعها الفرنسيس على ألسنة جواسيسهم لينالوا من ورائها مأربا . ألم تشرع مولاتنا شجرة الدر في ذلك ؟
محسن : مثل مولاتنا لا يهدىء هذا النبأ بالها . وقـد كتبت الى مرغريتا امرأة ريدافرانس تسألهـا وتستوسطها فى ارسال اختهـا اليها إن كان الأمر صحيحاً ، وأهـدت اليها شيئاً كثيراً من درها الأسود النادر . فذهب الرسول ولم يعـد وكأنه طمع فيما كان يحمل .
أقطاى: (متعجباً) ومن كان هذا الرسول ياترى ؟
محسن : تاجر من أهل البندقية تعرفه منذ كانت في بيت المستعصم ببغداد أي قبل أن تتزوج من مولانا السلطان الصالح .
أقطاي : تالله ماوثقت يوماً بتاجر ولا رأيته فيمن يستحق كرامة .
ولـكن ماذا فعلت شجرة الدر ؟

محسن : لعمري لولا أن مرض السلطان يقعدها لذهبت هي نفسها تبحث عن اختها هذي . فما أنس يوم جيء بها معنا الى العراق كيف كانت تبكي على أمها وأبيها وتتوسل الى بائع الرقيق أن يردها الي خوارزم . والرجل يضحك مرة ويعبس أخرى ويهم بضربها أحياناً . ولا أنس أيام اصطفاها السلطان زوجة له كيف أخذت تنبش الارض عمن تخطفهم تجار الرقيق من أهلها اثر نكبة التركمان الكبرى وماذا أنفقت من الأموال حتي جاءها بيبرس بأختها صفية هذي .

اقطاي: لقد كان يوماً مشهوداً .

محسن : بل لعمري انها بالرغم مما هي فيه من نعمة تغبطها عليها الحور لتحن الى خوارزم وتئن كلما ذكرت أنها مقطوعة عن الأهل فى هذه الدنيا ولاسيما بعد إذ فجعت في خليل ولدها الذى رزقته من مولانا . كم مرة دخلت عليها الخدر وهي تبكي لفراق أهلها وذكرى أمها فأبكتنى معها

---

(١) كان محسن هذا من الخصيان كسهيل

أقطاي: أحزنتني والله يامحسن . ايقظت بي ذكرى الأهل والوطن.
لعمرى إني لأحس في بعض الأحيان لهبا يندلع فيفؤادي
اذا تعرضت لى ذكريات الوطن .

محسن : اشكر الله على نعمة الاسلام ياأقطاى . انه جعل من
أهله اخوة ومن أوطانه كلها وطنا لأهله .

أقطاي: صدقت ولكن الانسان يحب من الدنيا قطراً فبلدا ، ومن
البلد خطاً فحارة ، ومن الحارة زقاقا فبيتا ومن البيت غرفة
فزاوية . وإني لأتمني أن أعود الي هذه الزاوية من بيت
أبي في خوارزم أقضى بها بقية أيامي .

محسن : إحمد الله على حالك ياأقطاي . كنت وكان أعيان المماليك
البحرية من أعيان خوارزم ، فلما شتتنا المغول لم يشأ ربك
أن ننزل في غير بيت المجد والامارة والنعمة الفياضة ،
فقيض لنا مولانا الملك الصالح ففدانا واشترانا وأعزنا
كأهله وأمرنا كما كان آباؤنا* .

أقطاى: انها والله لنعمة كبرى لا بنى بشكرها أن نبذل أرواحنا في
مدارج قدميه وقدمي أختنا ومولاتنا شجرة الدر فضلي

---

* كتب التاريخ

نساء المسلمين . كان أجدر بك يامحسن أن تذكرها أننا أهلها وموإليها وأننا نفديها من الشر بأرواحنا .

محسن . إنها والله لتعرف ذلك وتعتز به، وترى انها بخير مادمتم . ولقد أقلق بالها اليوم أمر عصيب ، فرأت أن تدعوكم للقائها

أقطاى: إنى تلقيت الليلة رسالة منها ولكن يدهشني منها أنها بخط السلطان

محسن : بخط السلطان ! متى كان السلطان كاتب يدلامرأته! بل هل يستطيع السلطان الكتابة وهو على خطة ؟

أقطاى: لا أدري

(سكوت)

سهيل : لعنة الله على هذا الفرس . (يرفع يده متضايقا فيضحك أقطاي وينظر الى الموقف)

محسن : (يضحك مقهقهاً) تقبّله هبة مني ياسهيل

سهيل : هبة ! والله لو كان لجامه من ذهب وكنبوشه مرصعاً بالماس ماأخذته ... دونك هذا البيدق .

(يقدم البيدق)

أقطاى: (يعرض الرسالة التى جاءته من شجرة الدر على سهيل)

أتعرف هذا الخط ياسهيل ؟

سهيل : (يأخذهامنه وينظرفيها ويردها مسرعا بلا اكتراث وهو يبتسم ويعود فينظر الي الرقعة)هذا خط السلطان .

أقطاي : (بتعجب) خط السلطان ! (يطوى الرساله ويعيدها إلى حياصته)

محسن : قبّح البيدق وصاحبه (يقدم قطعة من قطعه)

أقطاي: إياك والاستهانة بالصغير.. كم من بيدق فاز على ملك .

سهيل :وهذا برهان المقال.(يقدم بيدقاآخر).هذا بيدق آخر. كش الشاه

محسن : (بذعر) شاه ! كيف ذلك ؟ محال !

سهيل : ويحك أما ترى !

أقطاي : (يضحك) قضى الأمر يابنى . مات الشاه !

سهيل : مات الشاه .

فخر : (ينهض عن مقعده) بئس الفال ! بئس الفال ! أقسمت عليكم أيها الأمراء الا مافضضتم هذا اللعب قبل أن يتم . دعوه بالله لنوبة أخرى . أرجع القطعة ياسهيل . انه لفال شؤم على السلطان (يلتفت اليه بيبرس ويعود إلي النظر

في القرآن)

أقطاي : (يضحك متهكما ولا يلتفت اليه) أأنت من أهل الطيرة والفأل يافخر الدين ؟

فخر : كلا والله . ولكن النفس اذا وجدت استسلمت الي كل شيء حتى الخرافة . ولقد أنقضني مرض مولاى الصالح وعلكني الحزن على مصر منذ نزلت الفرنجة بأرضنا . لعمرى لئن فاجأه القدر ونحن فى قتال مع الفرنسيس لانقسم الأجناد بعضهم على بعض وأخذنا بالسيف من كل جانب . أما والله انه ليخيل الي أني متقدمه الى الدار الآخرة عما قليل

أقطاى : تحسن والله صنعاً ان فعلت ياسيدى الأتابك . هذا وحقك جزاء وفاق (سهيل ومحسن وان كانا منهمكين فى اللعب يضحكان ويشاركهما أقطاى بعد ذلك . وفخر الدين يؤخذ خجلا) أليس كذلك يابيبرس ؟

بيبرس : ذرنى ونفسى ياأقطاي

سهيل : دعه يتم سورة الفتح يا أقطاي !

بيبرس : لست أقرأ سورة الفتح ياسهيل . انما أقرأ سورة المنافقين .

لا أدري من ذا الذى جاء بهذا الأمير (مشيرا الي فخر الدين) الي هذا المكان ؟ أهو من أمراء النوبة هذه الليلة ؟

محسن : كلا ولكنه ...

بيبرس : فماذا يدعوه الي مضاعفة همنا بظهوره بيننا فى هذه الليلة الليلاء؟ أيريد أن يذكرنا بتخليه للفرنسيس عن دمياط؟

محسن : (يتكلم ولا يلتفت) لقد عفا الله عما سلف يابيبرس .. دع عنك هذا

بيبرس : لعمرى لئن عفا الله عن مثل هذا الجرم لقد هان الكفر على الكافرين

فخر : انك لتحرج صدري أيها الأمير . أتعي ما تقول ؟

(ينهض ويمد يده الي مقبض سيفه)

بيبرس : (ينهض ويضع يده على مقبض سيفه ويجرد بعضه) لقد كان جديرا بك أن ترينا بريق هذا السيف على شواطيء دمياط مقبلا لا مدبرا . . حسبك أيها الامير . . هذا برق خلب لا يخدعنى

فخر : إنه لينطف دما يا بيبرس لو كنت تدرى .

بيبرس : أجل دماء النساء والولدان من أهل دمياط .

أقطاي : (ينهض) دعونا من هذا اللجاج أيها الأخوان . حريّ بكم ألا تزيدوا السلطان مرضا على مرضه باقتتالكم على ما فات. أنى لأخشي أن يبلغه الامر فيقضي نحبه . أغمد السيف يافخر الدين . وأنت يا بيبرس حسبك

بيبرس : (يغمد السيف بشدة) لو أن أنني قد تولت الدفاع عن دمياط وهى في حصونها التي أقامها الصليبيون منذ ثلاثين عاما ، وتحت امرتها من الرجال ما كان تحت أمرة هذا الامير من بنى كنانة والمماليك البحرية، وبين يديها من المؤونة والذخيرة والعدة والسلاح ما كان بين يديه، لاستعصت على الجيش اللجب، ولأنزلت بعدوها أنكر العطب . ولكن كبير جند مصر لم يزد على ان نهض من مجلسه وأطل صوب البحر فرأى مراكب الفرنسيس تدنو من دمياط ففر كالارنب الاخرق المذعور ،تاركا اعراض المسلمين من ورائه ينتاهبها قسرا جنود الصليبيين ورقاب الامراء من بني كنانة يضربها السلطان فى وجده ،ورأس

هذا الامير بين كتفيه .

فخر : ويحك . . أما والله لولا أن يقال لم يرع للسلطان حرمة لاسلت الآن دمك .

بيبرس: أولسال دمك يا سبة الامراء(يجرد سيفه ويهجم عليه ويقابله فخر الدين بمثله ويقتتلان ويتقدم اقطاي نحوهما وينهض سهيل ومحسن ويحاول الجميع الحيلولة بينهما.)

محسن : ما هذا !

أقطاى: بيبرس ! (واذا بشجرة الدر قد فتحت الباب الايمن وظهرت فتقدمت ثم وقفت تنظر. وشجرة الدر هذه فى الخامسة والثلاثين من العمر كبيرة العينين حلوة الوجه صغيرته ، نظرتها نظرة الصقر هادئة ، تدل ملامحها علي أنها قوية العصب واسعة الحيلة.وهي مرتدية قباء من الحرير السميك قصير الكمين مطرزاً حول قبته وعلي ظهره وأطراف كميه وسجفه بالزركش الثمين المرصع بالجواهر على صور طيور وأفنان وتحته قفطان من الحرير الابيض المطرز أيضا قد تمنطقت عليه بحياصة مرصعة بالجواهر وتدلت منها ذلاذل من أسماط اللؤلؤ تخفى بينها خنجرا صغيرا

مرصع المقبض والقراب . وعلي رأسها عمامة من الشاش الحريرى الاسكندري (المقدونى) قد نثر عليها اللؤلؤ في اسماط ثبتت على صورة بوائك وموشحات برزت فيما فوق الجبين منها درة سوداء كبيرة تحيط بها درر أخرى. وعلى صدرها ولبتها عقود من اللؤلؤ أيضا. وفي رسغيها وأصابعهاسواران وخاتم ثمين وفي رجليها حذاء على شكل « المركوب » أو هو بعينه مرصع بالجواهر. وقد انتقبت بغطاء شعشاع إذ أن جميع من في الدار عبيد زوجها ورجال بعضهم طواشي والبعض ممن اتصلوا في الخدمة بها مدة طويلة)

(الامراء يتنحون فيرجع بيبرس الي مكانه واقطاي يقف الى جوار فخر الدين ومحسن حيث كان يلعب وسهيل يبعد رقعة الشطرنج الي الوراء)

شجرة : فخر الدين بن شيخ الشيوخ وبيبرس البندقداري ! اذن فقد ضاعت الدولة علي أيديكم أيها الامراء (ملتفتة الي الامراء) ايقاتلكم العدو فى ظاهر بلادكم وتقتتلون أنتم

في باطنها أم تبتغون نصر الله! مرحي! مرحي لزعماء الاجناد (تتقدم وتنزل الرحبة) . ماذا جرى لهذا الشتماق يا محسن ؟

محسن : تخلى الامير فخرالدين عن دمياط يا سيدتى .

شجرة : (الى بيبرس) لعل للامير عذرا في اخلائها ، أفمن حقك أن تجزيه على ذنبه ؟ لو كان فخرالدين قد أخطأ فيما فعل لضرب السلطان عنقه أسوة بسواه

بيبرس : وى ! . . ألم يخطيء ؟

شجرة : إن لاخلاء دمياط سرا لا يعرفه كثيرون . وقد أطلعنى مولاى السلطان عليه منذ عهد قريب فعذرته والحرب خدعة .

بيبرس : انعفا السلطان عنه بعد ذلك ؟

شجرة : نعم . عذره عذر فارس لفارس

بيبرس : فلماذا قتل السلطان أمراء بني كنانة الذين فروا معه وهم انما تركوها تأسيا به ؟

شجرة : كان ذلك قبل أن يعرف السر وقد حزن لقتله أياهم حزنا شديدا*

---

* كتب التاريخ

اقطاي : إذن فقد اخطأ فخرالدين فى التأخر عن الشفاعة لهم عند السلطان يامولاى

شجرة : لا أدرى لعله كذلك

فخر : لم استطع المثول بين يديه فقدشغلنى ملك الفرنسيس وأخواه يومين كاملين عند البحيرة ولو خليت ساحة القتال في تلك الساعة الرهيبة لقتل من أمرائي فوق هؤلاء عدا ولكان جرمي إذ ذاك أعظم وأشد . على أنه لم يدر بخلدي أنه آمر بهم أن يقتلوا

سهيل : إذن فقد أعذر كل منهما ياسيدتي

شجرة : أجل أجل (تتقدم الي الكرسي الكبير الذى في صدر الايوان ثم تجلس ويذهب فخر الدين الي يمين اقطاى) من لنا فى الجند كهذين ؟ اليس كذلك يامحسن ؟

محسن : بلى ياسيدتى

اقطاي : لم أجد في الدنيا رجلا يغضب للحق غضبة بيبرس . لقد كان إفضاء كل منهما إلى صاحبه أدنى إلى الأخوة منه إلى الصداقة حتى رأيته الليلة يقاتله من أجل الحق .

شجرة : نعمت الغضبة لله والحق . أما والله لولا ذلك ماعفوت عنك يا بيبرس .

بيبرس : شكراً لمولاتي .

شجرة : وأنت يا فخر الدين اعذر أخاك .

فخر : لقد والله كنت أجد لومه اياي عتبا فاعذره فلم أحرج نفسي والفطرة أغلب .

شجرة : إذن فتصافحا .. تصافحا أمامي وليكن ودادكما بعد اليوم في خدمة الله اخاء (يتصافحان) هذا أليق بحماة مصر (الى اقطاى) أبلغتك رسالتي يا اقطاى ؟

أقطاى : أجل يا سيدتى .

شجرة : وأنت يافخر الدين ؟

فخر : جئت طوع أمرك يا سيدتي

شجرة : أما أنت يابيبرس فقد علمت من محسن أنك من أمراء النوبة هذه الليلة فلم أجد حاجة الي استدعائك . انى أريدك .. أجاءك نبأ أختي ؟

بيبرس : علمت الليلة أنها جاءت من الشام تنشدك فى دمياط ولم تكن

تدري بما أصاب المدينة فوقعت في قبضة الفرنجة

شجرة : فما بال ركن الدين قد توانى عنها ؟ ترى نسي عهده أيام كانت معنا فى الكرك عند يوسف ؟ أم أنها جاءت مصر تبغي غير من أنقذها من أخياش بني الاصلم فى بادية بغداد ؟

بيبرس : لم أكن وحقك لأدري بما أصاب أختك الا الليلة إننى كنت بشار مساح حتى اليوم . ولكنت الساعة بين سمع الفرنسيس وبصرهم لولا أنها نوبتي في جوار مولاى السلطان . إنك لتعلمين أني لا أطيق أن أتمثل لنفسي أختا فى الدين والوطن أسيرة حتى أنقذها فما بالك ياعصمة الدين بالفتاة التي علقت بها نفسي وعلقت بى نفسها ؟ أما والله لو كان فوق الروح فداء لفديتها . فاعذري يا سيدتي وتوكلي على الله .

شجرة : شكرا لك يابيبرس . من أجل هذا رضيت بك فارسا لها

فخر : (يتقدم من بيبرس) ماأشد جرمي عليك ياركن الدين . لقد كان اخلائى دمياط وقرا عليك يعدل ما أصاب الناس فيها جميعا . لو بقيت فى يدي يومين لبلغتك عروسك سالمة

ولـكنه قضاء الله . معذرة اليك يار كن الدين

بيبرس : لـكأنه أراد لنا أن نتقاسم البؤسى اذ نحن صديقان كما تقاسمنا النعمى في كل مكان . لاتحزن يافخر الدين ذلك قضاء الله

فخر : استمعوا لى أيها الرفاق . سأقص عليكم نبأى الذى كتمته عنكم حياء لتعذروا أخاكم حقا ولتعلموا أنى على ماءهدتم في من إيثار الموت على العار .

شجرة : أحسنت يافخر الدين . هذا انني لريبة النفوس

بيبرس : إن كان في التذكر أسى لك فأمسك عليك سرك . حسبنا عذر السلطان

فخر : كلا . ان كان فى التذكر أسى لي فهو حسبي . لما جاءت مراكب الفرنسيس الى بر دمياط جاءتني فتاة تلهث من الركض وهي تبكي وتنتحب . تقول : أنقذنا . أنجدنا . أنقذ أبى وأمي وأهلي . اذ الفرنسيس نزلوا بفارسكور. فزعمت أن الفرنسيس أرادوا هذه المرة أن يأخذونا من كل الجهات فنزل بعضهم بحيرة تنيس بشوان قريبة القاع ليقطعوا

الطريق على جيشي ، ويبلغوا المنصورة بلا قتال . واذ كان في الامراء من قدّروا هذا الامر وأشاروا عليّ بانقاذ السلطان فقد خرجت بجيشي لا ألوى علي شيء حتي بلغت فارسكور . ولكني لم أجد أثرا لما قالت تلك الفتاة الخائنة وكذلك نزل الفرنسيس بدمياط بغير قتال

أقطاى : من تكون هذه الفتاة ياترى ؟

فخر : لا أدري

أقطاي : ألم تعلم من أمرها بعد ذلك شيئا ؟

فخر : لم أرها منذ ذلك الحين ولم أعرف من هي

محسن : لن يخون المؤمن أخاه المؤمن

أقطاى : ولا المصري أخاه المصرى . ولكنى لاأظنها عملت ذلك بعلمكما

محسن : هذا مقدر

شجرة : خدعة إنّها الأمراء والكريم يخدع

بيبرس : لاجناح . لنخرجنهم منها أذلة كما أخرجناهم من قبل *

* يشير الى اخراج الصليبين من دمياط قبل هذا بثلاثين عاما

أقطاي : والآن . مامهمتنا نحن يامولاتي ؟ ان كان من أجل هـذا
دعوتنا فقد كان فيما فات بـلاغ
شجرة : ليس هذا كل مادعوتـكم له . ولـكني رأيت مولاكم
في حالة تدعو الى القلق حتى لأشفق أن يلبي الليـلة دعوة
ربه . فاذا وافاه القدر وأنتم مشتغلون بمقاتلة عدوكم وليس
فى مصر ولي عهد معهود فانى أخشي أن تنفصم الفة الأجناد
فيتفرقوا ويفشلوا ويحل بمصر والاسلام مالا دافـع له الا
الله . فماذا أنتم فاعلون ؟
فخر : انا نضرع الي الله أن يهبه العـافية ويمد فى أجـله حتى
تنجلي عنا هذه الغمة .. أما والله لاأدري ماذا نفعل ياسيدتي
شجرة : وأنت ياأقطاى ، هب أن مولاك قضي فى هذه الأيام، أبقت
فى عضدكم وتذهب الدولة بقضائه ؟ الله يعلم أنى أحادثـكم
ونار الأسي تتأجج في صدرى ولـكني عاهـدت ربي أن
أدارى جواى في طية من طيات الفؤاد وأجعل باقيه وقفا على
مصلحة هذه البلاد . لذلك ترونني أستعجـل الحكم وانظر

الي الامر كأنه تم . فما رأيك ؟

أقطاى : لاقدر الله يامولانى ولـكن انظرى في الامر ومرى تطاعي

شجرة : آه (متضايقة) . مارأيك أنت يامحسن ؟

محسن : لارأى لنا معك ياسيـدتى . ان مولانا لم يوص بولاية العهد لأحد من أهله . ولا هو يستطيع الآن وصاية ، اذن فالشقاق منظور . مارأيك أنت يا بيبرس ؟

بيبرس : أكاد أرى سيدتى تنهي الينا نبأ الفاجعـة في مولانا السلطان شيئاً فشيئاً فأن كان كذلك فانا لله وانا إليه راجعون

شجرة : انا لله وانا إليه راجعون . قضي الأمر أيها الامراء (تبكى شجرة الدر)

بيبرس : اللهم لاحول ولا قوة إلا بك (تبكي شجرة الدر ويقف الرجال محزونين)

فخر : ترفقي بنفسك يامولاتي . اذكري قوله تعـالي « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبـة قالوا انا لله وانا اليه راجعون »

محسن : انّ لنا في رسول الله أسوة حسنة . لعمري ليس هـذا

أو ان البكاء والنحيب وإنما هو أوان الرأى والتدبير .
أفتريدين أن تشغلي بالك بالحزن حتي تفقد مصر رأسها ؟
انا نعلم أنك كنت صاحبة الامر أيام كان مولاي في
حصار حمص ، وكنت ذات الرأى منذ لزم السطان فراشه
فاذا استسلمت للأسى استسلمت البلاد للأخطار ووقعنا
أسري فى أيدي الفرنسيس ، وكنت أنت فى مقدمتنا . أن
كان لمولاي الراحل عليك حرمة فارعيها اليوم بأرجاء
الحزن عليه ودبرى له ملكه الذي كان يغار عليه
غيرة عظيمة

أقطاي : صدق محسن يامولاتى . ورأيى أن تمضي فيما كنت
فيه من تدبير شؤون الدولة وتكونى ملكة مصر والمسلمين
طرا ونحن كما نحن مواليك المخلصين

شجرة : ملكة المسلمين ! افقدت الديار رجلا ؟ كلا . لم أكن
لأحدث فى الأسلام خرقا ياأقطاى

أقطاي : ولكن ماذا نفعل ياسيدتى ولم يوص مولانا بولاية العهد
لأحد من آل بيت بنى أيوب ؟ انك والدة ولده خليل

رحمه الله وقد فاضت أيديك كرماً على أهل مصر والشام حتي اصبحت ولك فى كل قلب عرش وفى كل فؤاد مقام. وعلم الناس أن مولانا كان يعهد اليك في تدبير الدولة فى غيبته لفضلك وكياستك — فاذا توليت أمرهم بما عهد فيك من الحصافة وبعد النظر كان أجرك عند الله عظيما. كذلك كان أجر خاتون بنت الملك العادل فقد ملكت حلب بعد وفاة ابنها العزيز وتصرفت في الأمر تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام*

شجرة : أجل ولكنى لا أريد أن أغضب الرسول فى قبره ، أم تريدون أن يحق عليكم قوله عليه الصلاة والسلام: لا يفلح قوم ولوا عليهم امرأة ؟

بيبرس : بارك الله فى سيدة نساء المسلمين. استمعوا لى أيها الأمراء إن اعلان الخبر اليوم أذى لمصر فلا بد من الكتمان

فخر : أجل . أجل

عن أبى الفداء

محسن : لاشك في ذلك

بيبرس : ومادامت مولاتنا لاترى رأى أقطاي فلنبعث بأحدنا الليلة الى ديار بكر سراً ، وليكن أقطاى نفسه، الي الأمير طورانشاه بن السلطان الكريم يخبره بالنبأ المشئوم ويأتي به الى مصر ليتولى شؤون الدولة بعد أبيه

محسن : (بانكار) أتريد هذا سلطاناً علينا ؟

بيبرس : أجل .

محسن : نحن لانريد سلطاناً كهذا يابيبرس انه ليس كأبيه ولاجده

بيبرس : كلا ولكن المصريين لايريدون الاملكا من بيت بني أيوب

محسن : أنظر لنا رجلا من كرامهم ، فما الملك هنة من الهنات

بيبرس : نحن اليوم في غمرة ، وانى لأخشى الفتنة فى الداخل ان همّمنا بمثل هذا

محسن : ولكنه لايصلح ،أتريد أن يملأها خمرا وحمقا ونزقا . اني ماسمعت أباه يذكره بخير أبدا . هل بعث به الى أقصى الأرض من مملكة الشرق وجعله واليا على كيفا الا ليريح

هذى البلاد من نزقه ؟

بيبرس : اعرف ذلك ولكن الدولة ليست بسلطانها ولا بملكها وحده يامحسن

محسن : بمن اذن ؟

بيبرس : برجالها ، بنفوس أبنائها . فان كان السلطان عظيما وهى دونه لم يفدها جلالة كثيراً ، وان كانت عظيمة وهو دونها لم يضرها ذلك فتيلا . ونحن والحمد لله قوم لانعرف فى الحق زيفا ولافي الوطن مراء

شجرة : الحمد لله على ذلك

الجميع : حييت يابيبرس

بيبرس : فلتوله علينا طوعا لارادة الناس ورعاية لعرف البلاد . ان المصريين لايريدون الا ملكا من بيت الصالح

محسن . حتي ولو مال عن الحق ؟

بيبرس . اذا مال عن الحق فما هو بأعز جانبا من عمر الا أن تتلمسوا سيوفكم فلا تجدوها

محسن . ولكن مولاي لم يوص بولاية العهد الي طوران شاه فكيف

يرضى به الناس ؟ انا لانريد أن يتخـذها دعاة الملك من
بيت العادل والناصر فرصة للتفريق

بيبرس : بين مصر وكيفا مسيرة اربعة اشهر ذهابا وجيئة ولسـ
أظننا نقصر عن دفع العدو فى غضونها

فخر : (يقاطعه) ولـكنكم نسيتم انه قد يتسرب خـبر موت
سلطاتنا الي الناس من حيث لانعلم فيفسد عملنا كله

بيبرس : (بصوت المتضايق) اذن فلتكتب مولاتنا من فورها
رسالة بالخط الذى راسلتك به انت والفارس اقطاى وهو
يكاد يكون خط السلطان بعينه ....

شجرة : (تقاطعه) انه خط كاتبي سهيل *

اقطاي : (يلتفت متعجبا لسهيل) خط سهيل !

سهيل : انه خطي ايها الفارس (يبتسم)

بيبرس : اذن فليكتب سهيـل بخطه وبتوقيع السلطان الى الامر
فى قلعة الجبل فيالقاهرة والى من كان منهم هنافى المنصورة

---

* ذكر المؤرخون أن خط سهيل كان مثيلا بخط السلطان

بالطاعة للسلطان الصالح كأنه لايزال حيا وبولاية العهد
لولده طورانشاه حتى نأمن هذا الجانب من تدبيرنا

الجميع : حسن . حسن

بيبرس : وبالاتابكية للامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ
(يشير الى فخر الدين) .

فخر : لى أنا ؟ كلا أيها الامراء ان نجمي قد أفل ، عليكم بغيرى
وليكن ركن الدين نفسه (يشير الى بيبرس) انه لأكبرنا
همة وأعزنا نفرا

بيبرس : بل لك أنت يافخر الدين ، انك لكبيرنا وعمادنا على
كل حال وما الأتابكية الا حق لك غير موفور

سهيل : يا لجميل الاعتراف!

أقطاى: هذا أرعي لذمة السر يارجال

شجرة : صدقت ياأقطاى

محسن : لا بد من ذلك يافخر الدين

فخر : شكرا لكم أيها الاخوان

بيبرس : وليقم فخر الدين الى حسام الدين لاجين يجمع في داره
الامراء ويحلفهم على ذلك وأنا أول الحالفين

شجرة : مرحى للبطل .

بيبرس : وليبق كل امرىء منا على ما كان عليه ، فحسن ناظرا للخاص وسهيل لكتابة السر وأقطاي في أمرة التدريب ونيابة الأتابكية وعز الدين وقطز وبلبان وتكزو وبيبرس ولاجين فيما هم فيه من الأمرة . ولتبق مولاتنا شجرة الدر تدبر الامر ، شورى ، حتى يأتى الامير طوران شاه . عندئذ نعلن ما قدمناه وقد جزنا مرحلة الخطر سالمين

أقطاى : أصبت

فخر : أصبت

شجرة : بارك الله فيك

بيبرس : فأما مولانا عليه الرحمة فيوارى لحده في غفلة القصر ، وتبقى مولاتنا على كتمان أمره لا تغير عادة من عاداته ، بل يخرج الطعام فى أوقاته ويصعد الاطباء على عهدهم ثم يصرفون بعذر يختلق

شجرة : هذا خير ما يفعل . أليس كذلك يا محسن ؟

محسن : نعم الرأي يامولاى

شجرة : وأنتم أيها الأمراء اتقسمون عليه ؟

الأمراء : نعم

شجرة : صدق بيبرس إن الدولة برجالهـا ، هات القرآن ياسهيل ، أأنت متوضيء؟

سهيل : لم يطلع الفجر بعد يامولاتى . هاته أنت يابيبرس لقد كنت تقرأ فيه الساعة

بيبرس : (يتناول كرسي المصحف بين يديه) هاهو ذا يامولاتى . (ويضعه فوق الكرسي المضلع الذي تحت الثريا)

شجرة : (تتناول المصحف وهو مفتوح فتقبله وترده) تقدموا

بيبرس : (ساعة تقدم الامراء الحاضرين يستل سيفه ويضعه بين دفتى المصحف)إن لهذا السيف حرمـة فليكن مع القرآن فى قراب

شجرة : أحسنت (للامراء) أقسموا (يضعـون أيديهم معها على الكتاب والسيف وسهيل يضع يده في منديل يتناوله من

حياصته وتكون يد شجرة الدر فوق الجميع وهي تقول والامراء يرددون كل كلمة تقولها) نقسم بالله العظيم (يرددون) ونبيه الكريم (يرددون) وكتابه هذا (يرددون)وهذا السيف المسلول (يرددون) أن نحفظ السر (يرددون) ونعمل بما أبداه بيبرس (يرددون)

بيبرس : (يتمم) ونكون عونا لمولاتنا (يرددها الامراء وحدهم) مادامت على الحق والسنة (يرددون)

شجرة : (ترفع كفها ويرفع الأمراء أيديهم ويعودون الى أماكنهم الأولى ويأخذ بيبرس سيفه ويغمده في قرابه) حياكم الله أيها الامراء . بمثل هذا تقوم الممالك . عودوا الآن على بركة الله . سأدعوكم كلما جد في الامر شيء. ما كنت فاعلة أمراً حتى تفتون. اذهب الآن ياسهيل أنت وأقطاي لكتابة الرسائل .

سهيل وأقطاي : سمعا يامولاتي (يخرجان من باب الخاص)

شجرة : وأنت يابيبرس فائتني بأختي طاهرة نقية أو فأتني برأس

هاتك حجابها (تتراجع قليلا)

بيبرس : ويل لهاتك حجاب المؤمنات ! أما وهـذا السيف الذي لا يعرف فى الحق لومة ولا للبغاة حرمة لأطهرنّ البـلاد منهم أو لأغمدنّه فى صدرى ولآتينك بأختك كريمة أو أموت دونها كريما

شجرة : إذن فاذهب اليها ، إني أسمعها تدعوك (تهم بالخروج من حيث أتت وتلتفت مولية)

بيبرس : (يمد يده للسيف فيجرده ويقيمه أمام ناظريه يحادثه وهو يهتز وينتفض)

أيها السيف قد دعوتك فانهض ... إن بنت الكرام رهن اللئام
قد أهابت بنا فان لم نجرها ... فقرا فاطول المدى ياحسامي

(ثم يضرب بالسيف في الفضاء الى أسفل)

ويسدل الستار على الفصل الاول



الفصل الثانى

المنظر

يزاح الستار عن رحبة براح وراءها جدار عزبةقصير ، فيه باب ذو مصراع واحد من الخشب ووراء الجدار بستان تلوح منه أشجار توت يظهر من ورائها بنيان بيت صغير وراءه وحوله فى (الفندو) بيوت صغيرة للفلاحين . والى جانب الباب دكة من الخشب ذات مسند وقد فرش عليها شريط من الحصير وضعت عليه وسادة وراءها حشية والى المسند حشية مثلها . ويرى الى اليمين بالنسبة للمتفرج طريق على رأسها شجرة صفصاف والى اليسار طريق على رأسها ساقية :

يخرج برنار صاحب العزبة من باب الجدار على مهل وهو رجل في السبعين من عمره لم تقوس ظهره السنون الا قليلا ولكنه ابيض شعر الرأس واللحية والشارب . لباسه لباس فلاح فرنسي متمصر وعلى رأسه كلوتة سوداء رقيقة وقد ارتدي عباءة أشبه بالجبة من

صوف سميك اتقاء البرد وتكون في يده عكازه ساعة دخوله وإذا فتح الباب تركه مفتوحا وأخذ ينظر في المكان . والوقت بعد الفجر بقليل ثم تبزغ الشمس شيئا فشيئا فيستضيء المكان .

* * *

برنار : (يجلس على الوسادة ثم ينادي) ماري (يصفق) ماري . أين ماري يا ترى ؟ لعلها تصلي الآن للعذراء . (يصفق) أو لعلها ذهبت تسقي البقر . الرب وأمه يباركان لي فيها

مريم : (تأتي من اليمين من طريق الصفصافة وعلى رأسها قفة فيها تبن) أنت الذى تنادى يا أبى ؟

برنار : أجل ياابنتى .

مريم : وكنت تدعو لى ياأبى ؟

برنار : كيف لا يا ابنتي ؟ انك تنهضين قبل أن أنهض . وأنا رجل مسن وأنت طفلة في السادسة عشرة من عمرك . وتقومين بخدمة أبيك وما وكل الله الينا من الحيوان .

مريم : شكراً لك يا أبى . إن محبتك لى ورضاك عني يملآن قلبي غبطة ونعيما . تالله لاقدرة لى علي شكر فضلك

برنار : بل إن فضلك لا يقدر ولا يحسب . ألست أنت التي حقنت دماء بني قومي حيال دمياط ثم وهبتها لهم فنزلوها آمنين ؟ تعالى . تعالى أقبلك (تنزل عن قامتها قليلا وتدنو منه فيقبلها) هنيئا لك ملكوت السماوات يا ماري .

مريم : لا تدعني ماري يا ابتي ، ادعني مريم . انني مصرية واكره أن أدعى بغير ما تدعي به سمياتي من فتيات القرية (تذهب فتضع القفة على ترس الساقية) .

برنار : لا بأس . ولكنه اعتياد اللسان يا ابنتي (يصمت) لماذا تأخر فيليب يا ترى ؟

مريم : (وهي تعبث بالتبن) أأنت على موعد معه يا ابتي ؟

برنار : كلا . ولكنه يأتيني ليلة الاثنين من كل أسبوع يحدثني باخبار القصر في المنصورة ويقص على كل ما يجرى هناك . أليس هو الذي أخبرني بقدم سلطان هذا البلد من حمص في هودجه مريضا لاعداد دمياط للقاء الفرنسيس فارسلتك الي فخر الدين

بتلك الحيلة التى انطلت عليه ثم أليس هو الذى ... الذي..
الذى أخبرنى باشتداد المرض عليه فارسلت الى الملك لويس بالمسير ؟ انه فرنسي مثلى أتحسبين أننا ننسى وطننا يامريم ؟

مريم : زعمت انك من أهل هذى البلد يا ابتى .

برنار : كلا يا ابنتى اني فرنسى . كنت جنديا فى جيش الامير يوحنا دوبريان الذى نزل بدمياط منذ ثلاثين سنة وكنت قبلها خادما فى قصر أم ملك فرنسا لويس العظيم نفسه . فلما دارت الدائرة علينا في فارسكور هذه وقعت أسيرا فى قبضة الملك عيسى عم هذا السلطان . ثم وقع فيليب وهو فتي صغير السن لم يبلغ العاشرة في يد الملك موسي عمه الآخر

مريم : أكان فيليب جنديا وهو في العاشرة من العمر ؟

برنار : لم يكن جنديا ولكن أباه كان طبيبا ولم يكن له من الدنيا إلا فيليب هذا . فلما أتى في ركاب الامير استصحبه معه ومات الرجل فى الاسر وظل الغلام في بيت عيسى حتى عاد إلى مصر وكان قد عرف من الطب شيئا كثيرا فنشأ طبيبا

كأبيه . آه يامريم ، لولا أن هذين الاميرين جاءا من الشام لنصرة أخيهما والدهذا السلطان لنلنا النصر يومئذ .. ولكنه مقدر ..

مريم : وكيف نجوت أنت من الأسر ياأبتى ؟

برنار : نجانى الله بفضل رجل عربى كان يقطن هذه الجهات دعاني للعيش معه حتي أعود الى وطنى . ولكنى آثرت الدير فطرقته وعشت فيه أعواما طويلة خادما لأهله وللرب .

مريم : أما فكرت في العودة الى بلادك ؟ أم استطبت هؤلاء البلاد ؟

برنار : ما كنت أدعو الله في امر إلا أن أعود الى بلادي ولكن أهل الدير حذروني من الظهور للناس . فلما مات السلطان الكامل أبو هذا السلطان تغيرت الامور وأرسلت الي مولاي أم الملك لويس لتنقذني فجاءني منها أن ابنها العظيم آت إلي مصر وسيعود بي ... فخرجت إلى الدنيا وقد تعلمت لغة القوم وجاهدت فى العيش حتي أصبحت ولي هذه الدار وهذه المزرعة .

مريم : كل ذلك بعد أن جاءك الخبر من أم الملك .

برنار : أجل يا ابنتي . لقد تأخر عشر سنوات . كاملة ولكنه فعل حسنا فاني استطعت بلا سيف ولا قتال أن أفتح دمياط وأجعل طريق المنصورة مفتوحة لهم . فاذا امتلكوها لم يبق أمامهم إلا قلعة الجبل. ومثلها لا يعز على الملك لويس . وعندئذ أكون قد انتقمت لقومي ولنفسي ثم أرجع معهم إلى فرنسا وأترك هذه البلاد جميعها.

مريم : وي!

برنار : نعم اتركها لا آخذ منها شيئا إلا سيفي النائم في قرابه منذ تسع وعشرين سنة حتي أكله الصدأ. وأما داري هذه وهذه الارض التى أطعمتني من جوع فانى أتركها لك جزاء خدمتك لى وأمانتك منذ كنا فى الدير .

مريم : وتتركني يا أبتى ؟

برنار : آه يا ابنتي . هذا ماتألم له نفسى يا مريم فأنه لابد من فراقك ولكن الرب يحرسك وأمه .

مريم : كلا . لا تفارقنى يا أبتى . إنى لا أشتهي المقام بهذه الدار من بعدك

برنار : شكراً لك يابنيتى . إنى سأوصى بك فيليب خيراً

مريم : وى فيليب ! ولماذا لاتأخذنى معك؟

برنار : لا أستطيع ذلك

مريم : لماذا ؟

برنار : هواء فرنسا لايطيب لك ياابنتي . بيد أن فرنسا لاتضيف الا الفرنسيين وأنت غريبة عنهم . فلا يأمنوا لك وربما آذوك أو قتلوك

مريم : يقتلونى جزاء مافعلت . . أهم كذلك ؟

برنار : كلا ـ كلا ـ ولكن وربما . . بل هم . .

مريم : اما والله لقد كان في فؤادى يوم ارسلتنى إلى فخر الدين وخز أليم

برنار : (باحتداد) وخزأليم! وخز أليم ! ادخلي . ادخلى قدمي العلف للبقر (تذهب إلى القفة تأخذها وتدخل) لعنة الله عليك من وقاح . لن تفارق الدم غريزته ولا القلب طبيعته

(هنا يدخل هبة الله فى ملابس كاتب من كتاب القصر . .

قباء قصير على قفطان من الكخا أي (الشامي) العريض التخطيط جداً ومنطقة عريضة — الا انه لبس فوق ذلك برنسا عربياً مشقوقا من قمته الى رأس الفؤاد فقطوله اقباع (طرطور) متصل بالبرنس عند العاتق وعلى رأسه كلوتة دقيقة مضربة اعتم عليها بشاش من القطن تحنك به على زى المغاربة وهو لبس الفاطميين الذين جاءت الدولة القائمة على أثرهم منذ عهد يعد قريبا ولذلك لم تتغير ملابس العامة فى أيام الفاطميين وظل هذا اللباس لباس العرب فى كل مكان وقد لبس هبة الله لبسهم ليتنكر . وهبة هذا رجل قصير القامة مستطيل الوجه أسمره نوعا ما ذو عينين واسعتين وحاجبه مقوس قليلا يحكم من يراه انه ممن يتعمقون فى بحث الامور العادية التى تنكشف لأول وهلة وذلك لما طبع عليه من الارتياب والتشوش الذهني على شيء من الغرور وتقصي الآمال الكاذبة . فاذا رآه برنار وقف متهللا وهو متكىء على عكازته) مرحباً . مرحبا ، ادن منى (يسلم عليه ويقبله) بركة الرب عليك . حسبتك تخلف الموعد يا أخي

هبة : لا يخلف الموعد الا لئيم ولكني تأخرت الليلة لآتيك بالنبأ العظيم

برنار : مرحي . مرحي . (يهم بالجلوس) اجلس . اجلس . هات ما وراءك . أقضى الرجل نحبه ؟

هبة : قضى أو كاد (يجلس)

برنار : (يبحث في جيبه ويخرج حقا) لقد كنت أعددت لك هذا الحق أيضاً

هبة : (يشير اليه بظهر يده إشارة الرفض) لاحاجة لى به . دخلت عليه ليلة الامس فوجدت مرهمك الأول يسرى في عروقه حتى أزرق أديمه واخضرت أصابعه فرخته به مرة أخرى وخرجت

برنار : هذا ماقدّرت(يعيد الحق الي ثيابه) ولذلك أرسلت الي الملك لويس أخبره بذلك وأشير عليه بالزحف الي فارسكور وقد عاد الرسول يخبرني انه كان يستعد لذلك إذ جاءه جيش مدد من عكاء . ولما بلغته رسالتي عرضها على باروناته

فسروا سروراً عظيما وزحفوا من فورهم.

هبة : مرحي. مرحي.

برنار : نشكر الرب . انه سيدهم وهم مشغولون بسلطانهم وليس له فى مصر ولى عهد. ولا بد أن يتقسموا على أنفسهم فيقاتل بعضهم بعضا. ليت شعرى أين يكون الملك الآن؟

هبة : لقد رأيت خياما من بعيد فلعلهم بلغوا هذه المحلة

برنار : لا حاجة الي ذلك . لقد أرسل يخبرنى انه اذا بلغ فارسكور مرّ بى فى طريقه الى الدير القديم إلى هذه القرية لزيارة ايقوناتة فاذا لقيته نصحته بالمسير الى بحر أشموم على الفور. كيف صار لويس ياتري ؟.. لقد كان صبياً جميل الصورة بريء النظرة يوم غادرت بيتهم لأحمل الصليب . كنت أقول له وأنا ألاعبه انك يا لويس مثل الملك الأعلي وستكون قديسا . وقد أصبح كذلك. انه لا ينطق الا بمثل كلام الرب ولا يفعل الا الخير

هبة : انى اشتهي رؤيته فعسى الرب أن ينهضه اليوم لزيارة الدير

وزيارتك حتى أراه وأتقدم لعبوديتي اليه . ليتني كنت
في خدمة أمه مثلك يا برنار

برنار : إني سأذكر له فضلك يا فيليب ولن تعدم اليه زلفي .
ولعمري لتصبحن في الامراء يوم يستولي لويس على قلعة
الجبل وحصن بابليون . واذا لقيت باروناته فسأحادثهم
في أمرك وأبين لهم انك بصير بدخائل هذه الدولة وانك
تصلح للولاية .

هبة : (يتناول يد برنارويقبلها) شكراً . شكراً

برنار : هل يجدون أعرف منك أو أقدر أو أخلص؟

هبة : شكرا لك يا برنارعلى حسن ظنك ولكني لا أبتغي من
نعيم الدنيا وأعلاقها شيئا أفضل عندى من الزواج بصفية
أخت شجرة الدر . تري ماذا فعلوا بها ؟

برنار : لقد خرجت من يدهم وأري خيراً لك أن تصون على نفسك
أشواقها فقد أصبحت الآن ملكا للامير دارتوا

هبة : للامير دارتوا !

برنار : أجل

هبة : وي ! كيف وصلت اليه ؟

برنار : لا أدرى إلا أنه جاءني بها

هبة : (ينهض مضطربا)جاءك بها ؟

برنار : (ينظر اليه جامدا) أجل

هبة : (محاولا مداراة اضطرابه) وهل كان يعرفك ؟

برنار : لا بد أنه سمع من أخيه الملك .وقدعاد برفقة رسولى الذى كنت أرسلته اليه

هبة : وكيف أخذها وكانت في حراسة الملكة مرغريت؟

برنار : (على حاله من الجمود) لاأدرى سوى أنه أودعنى اياها وعاد . وأوصاني أن أكتم خبرها عن الناس . ولكنى أعرف أنك لست فيمن يعنى .إنما يعني أخاه الملك وباروناته أرباب المشورة ومن على شاكلتهم

هبة : ولكن .. سرقها ؟ إن هذا الأمير فاسق جرىء . إنه اتخذ مقامه فى دمياط فرصة ليقيم فيها سوق الفسوق والبغي. حتي ضج منه جميع الناس

برنار : الظاهر أنه سرقها . فأن الملك لا يمكن أن يكون قد أسلمها اليه إلا أن يكون غافلا عما يفعله أخوه

هبة : إذن فأن الملك سيغضب لاختفائها لئلا تسوء سمعته فى بلاد مصر بأجمعها

برنار : لاشك . أن لويس قديس كريم

هبة : فاذا علم أنها كانت هنا صب جام غضبه عليك

برنار : لماذا ؟

هبة : سيرى أنك شريك فى الجرم. يجب عليك أن تخبره

برنار : أخبره ليقتلنى دارتوا ! اني أريد أن أظل على قيد الحياة حتي أرى احفادى ولكن من ذا يدريه انها هنا

هبة : (يغضب) أنا ياسيدي

برنار : (يضحك) أنت ؟ لقد هان الامر !

هبة : أتعجب لذلك ؟

برنار : لماذا ؟ أتريد ان تتولى انت اخفاءها؟(يضحك)

هبة : كلا ولكنك تعلم اني عالق القلب بهذى الفتاة منذ عرفتها

ولا أزال اؤمل ان تكون زوجة لى . فاذا وقعت في يد
الكونت دارتوا لم اظفر بها . ولكني ارجو اذا هي
بقيت فى بيت الملك ان اسأله إياها اجراً على ما فعلت

برنار : ولكنك تعرضني لنقمة الكونت دارتوا يافيليب

هبة : لا يهمنى يا سيدى . كيف يهون علي المحب ان يري من
يهوى في يد سواه ؟ إما ان تتفق معي عليها ، او اخبرت
الملك بأمرها (يجلس)

برنار : افعل ما تريد ياهبة الله

هبة : (يؤخذ ويصعق) هبة الله ! ألم أقل لك لاتدعني بهذا
الاسم مادمت معك

برنار : (بغضب خفي) بلى . ولكنى أردت أن أبين لك أن
كشف السر عن اسمك وحده يذعرك (بتهديد) ويحك!
إني أملك استماحة مولاى الملك عذرا ، أما أنت فلا تستطيع
مواجهة بيبرس إذا أنا أفشيت له بعض أمرك (ينهض هبة
الله) أعلمت أنك لاتزال أحمق يافيليب ؟ (هبة الله يفكر

مليا وتبدو عليه علامات التوفق إلى فكرة ناجحة فيكتمها ثم يعود فتظهر عليه علامات اليأس) . اجلس لا تفكر فى أن تعلم الملك أو تعلم بيبرس بشأني وشأنها فقد ذهب زمان ذلك . ان الملك على مرمى السهم منا فلم يعد لبيبرس سبيل الىّ . أما انت فأنى أستطيع ان اخبره بما فعلت للسلطان وانا فى امان . والآن إذ قضيت اربى منك ومن الفتاة التى استودعتنى إياها طفلة فى الدير منذ خمسة عشر عاما ....

هبة : مريم ؟

برنار: بل عائشة التى سميتها مريم ، بنت الفارس اقطاي الجداري التى حملك سخطك على امها ومقتك لابيها وجنونك ان تختطف ابنتها من مهدها وتأتى بها إلىّ لتحرق قلبها عليها . آه يالئيم ، ان رسالتك لاتزال معي

هبة : ويحك ! ويحك ! اتريد ان يفتضح امرى بعد كل خفائه وانت الذى اشرت علىّ به؟

برنار :اخرج ، هذه هي تطعم البقر فخذها ولا تقابلني بعد

اليوم . اني اصبحت امقتها هي ايضا . هلم (هنا تأتى مريم من الدار وعلى راسها بلاص) هذه هي (تتقدم مريم مارة امام الرجلين وتخرج من الطريق التى عليها الصفصافة يمينا وهي مغضبة)

هبة : رباه ! كيف تنكرت لي على عجل يابرنار ؟ أهـذه مروءة الأخوان ؟

برنار : ويحك ! (يقف ينظر اليه) اينا تنكر لاخيه (يلتفت) اما والله مارأيت فى الرجال مثلك اخرق (يلتفت) اقوال متناقضة وافعال غريبة يعزوها الانسـان الي سعة حيـلة وسداد راي ، او تعزوها انت وما هي الا خطل وبله . كلما رايت فى الامر وجها خفيا او مظلمـا سرت اليه تلتمسه فتنقض هـذا وتتمم ذاك ، ولا تدري عاقبة هـذا ولا ذاك . ويحـك . أما والله لولا أنى تدبرت الامر كله لافسدت عليّ كل عملي

هبـة : (ينهض) معذرة يابرنار ، معـذرة ٠ ان المحب مفقود

الحجا . أصفح عنى . يدك أقبلها (يتناولها بشدة ويقبلها
ثم يأخذ ينظر اليه ضارعا)

برنار : (ينظر اليه في أثناء ذلك صامتا) انهض . انهض . انك
لأ بله . أتظن انك تستطيع أن تخفيها عن عيون بيبرس
وهو موعود بها . وقد علم بأمرها كما أخبرتنى . بل ألم
تخبرهم أنت بذلك يا أبله . لماذا فعلت ذلك ؟ أليس هذا
لان ميزان عقلك قد خرب منذ زمان بعيد ؟ لماذا خبرتهم ؟
أية فائدة لك من هذا الاخبار ؟ ماخطبك ؟ قم . قم .
لاتحزن إنى اعدك بها . سأحادث دارتوا فى شأنها .
ولكن لاتسألنى عما سأفعل (هنا تبزغ الشمس ويرى
سهمها على الصفصافة)

هيبة : شكرا لك شكرا (يقبل يده) لاتذكر الا الخير (يجلس
بجواره مطرقا)

(واذا بصفية أخت شجرة الدر تخطت عتبة باب العزبة
وانحدرت الى اليمين فاذا رآها برنار قام اليها مذعوراً وأمسك
بثيابها فسلت ثيابها عنه)

أما ملابسها فقباء على شكل « بالطو » من الحرير الأحمر وقفطان من الحرير المعروف بالقطنية « الـكمخا » وعلى القباء برنس من الجوخ وعلى رأسها لفة صغيرة من الحرير الملون وهي فتـاة فى العشرين من عمرها بيضاء الوجه نحيفة الجسم حلوة الطلعة متناسبة الاعضاء ذات عينين قويتى النظرة وخد ممتليء علي صغر في الوجه

برنار : الأميرة صفية ! أين تذهبين ياابنتى ؟

هبـة : صفية ! (يتلثم علي الفور بشاش عمامته ويضع يده على صدره ثم ينهض وينحدر الي اليسار)

صفية : أجل انى صفية . دعنى .هأنذا ساكنة ، أتذعركم فتاة ؟

برنار : كلا ولـكنك وديعة عندى ولا يليق ... ارجعي ياسيدتى

صفية : وديعة ! ان كنت وديعة عندك فقدوجبت عليك رعايتي أم ان الودائع عندكم لا يرون السماء ولا يستنشقون الهواء؟

(يعود الى مقعده ويتكيء بيمنـاه على المسند والعكازة في يده قائمة علي الارض)

برنار : ولكنك يا ابنتي أسيرة . وقد جعلت عليك حارسا حتي أردك اليهم . أ أخون الامانة ؟

صفية : تخون الأمانة ! أية أمانة فيما تفعلون ؟ ويحي أيها الشيخ. متى كانت النساء تؤسر ! ألم يرسلنى ملك فرنسا العظيم إلى أختى كبرا عن أسر النساء ؟ فلم يشأ الذى ائتمنه أن يسير بى اليها ؟

برنار : ولكنى لاأعرف الا أن الكونت دارتوا أتى بك الي داري هذه حتي يعود اليك . وربما كان يريد أن يلتمس الطريق بك الى أهلك .

صفية : ولكنك تعلم أنه جاء بى اليك قسراً ، وأنا أخت امرأة سلطانكم . فكيف يقدر لى أن أجيء الي هذا النجع المصري ثم تبالغون أنتم في اعتقالي واخفائي عن عيون أهلي بل وعن اعدائهم الاكرمين الذين كنت بين ظهرانيهم ؟

برنار : ولكن ياسيدتى ... ما حيلتى (بلا اكتراث) لقد أصبحت هذه الدار ملكا للفرنسيس . فاذا أنا أطلقت سراحك لم يطلقوا سراحي

صفية : وما ذا في ذلك ؟ هب أنك اعتقلت فداء لصون فتاة ، أفتجد هذا كثيراً عليك ؟ أم ان اختلاف ديني عن دينكم ينسيكم حق الله والوطن ويبيح لكم أن تسلموا أعراض المسلمات لمتاكها وترون فى هذا زلفى الي الله وقربانا ؟

برنار : « بحيرة وحدة » ولكنهم يقتلونني ياسيدتي . من ذا يطيق القتل ؟

صفية : آه . لو كنت عرباً لأطقته . ولكن ...

برنار : ويحك . ارجعى الى حجرتك (يشير بعكازته يريد ضربها فلا تتحرك)

هبة : (وهو ملثم لا يبدو منه إلا عين ومارن أنف) روحي عنك يا سيدتى . الشيخ معذور فيما يقول - ان الفرنسيس خيموا الليلة بفارسكور وقد أنزلوك في داره هذه من قبل حتى يردوك الي أهلك بعد أن أسروا من جئت معهم من الرجال، كما تقضي شريعة الحروب فاذا هولم يرد إليهم أمانتهم

فيما يدعون لم يكفهم فيك نســـاء هذه القرية جميعهن.
(يشير يساراً)

صفية : (تنظر اليه باحتقار) آه يا سيدي ماعهدت اللئم إلا عربياً كريماً . ولـكني أرى قولك ادنى إلى قوله . أفأنت من هذا النجع وأهله ؟

هية : (يغص بريقه) هو كذلك ياسيدتى .

صفية : ان كنتم تخشون على فتياتكم فلا ضير عليكم ولاجناح إلا أن تروا سبيل انقاذهن ثم لاتبتغونها .

هية : ولـكن كيف السبيل ؟

صفية : اهجروا هــذا النجع بهن جميعــا . ارحلوا بهن الى اختي فى المنصورة تنزلكم منها مكانا عاليا وتبدلكم من هـــذا النجع قصرا منيفا وتكونوا من بعدها قوماصالحين

يرقار : ادخلي . ادخلى . لاتجرّى علينا برأيك الأذى. ذلك زمان تقضىّ ... ان الفرنسيس آخذون المنصورة ومن فيها وآخذون أختك أيضا . فاحمدى الله على أنك الآن فى حماى .

صفية : ويحكم . ويحكم . مارأيت مثلكم قوماينفاءلون الشر لبلادهم.

برنار : هوه . ادخلي يا ابنتى !

صفية : خسئت ان كان لى مثلك أبا .

برنار : (مهتاجا) ويحك ياخاسرة (يشير بعجازته يريد ضربها فلا تتحرك . وهنا يسمع صراخ مريم خارج المكان) ما هذا الصراخ ؟ (تأتى مريم جارية من جهة اليسار مفككة الشعر من أثر العراك وتلقي نفسها أمام برنار جاثية وتبكى بشدة)

مريم : أنقذنى ياأبي

(ينهض نصف نهوض والعكازة في يده)

برنار : ماذا أصابك ؟

هبة : ماذا جرى ؟

مريم : خبئونى . ردوهم عني .

برنار : ماذا جرى ؟

مريم : خرجت أملأ الجرة من الترعة فلقيني الذى جاءنا بالأمس (أثناء اللغب تخرج صفية فارة بنفسها خلسة من اليمين) فدهمنى على حين بغتة .

برنار : محال يا ابنتى .

مريم : وي ! لقد أراد أن يؤذيني يا أبتي .

(يدخل الكونت دارتوا فتنهض مريم مذعورة) هذا هو (تمسك برقبة الشيخ فيحاول ابعادها عنه لينهض لملاقاة الكونت)

(ودارتوا لابس خوذة وقميصاً مدرعا تمنطق عليه بحزام علق فيه سيفا ولبس فوق هذا حرملة من الصوف الثقيل وفى رجله نعل رومانية . إذا دخل وقف بعد الساقية بقليل)

دارتوا: أين الفتاة التى كانت على الماء ؟

برنار : مرحبا بالكونت دارتوا (واقفا ومريم بجواره)

دارتوا : (بلا اكتراث) أين هي ؟

برنار : هذه هي (يقدمها بلطف اليه وهى تمانع)

مريم : (تنظر اليه فزعة منه دهشة) ويلاه!

دارتوا: أجل هي بعينها . لماذا فررت منى ياصبية ؟ (يدنو منها) لماذا ؟

هبة : لم تكن تعرفك ياسيدى .

مريم : كيف لا ؟ أليس هذا الذي جاءنا بالأمس ؟

برنار : اذن فلماذا ذعرت ؟

هبة : هذا غريب

مريم : (لهبة الله) أيبغي الأمير عليّ ولا أذعر ؟

برنار : قبحت ياشقية ـ اليك عني (يطردها بعكازته) معذرة أيها الامير

مريم : (تصرخ) ارحمني يافيليب ـ ارحمني (تبكى)

دارتوا : ماللفتاة مذعورة مني ؟

هبة : ليست مذعورة يامولاي ، ولكنها لاتزال طفلة (يضحك ضحكة التلطف)

مريم : ويحكم كيف تتكلمون (تتركه وتتقدم جاثية الى دارتوا) ارحمني أنت أيها الامير . انهم يسلمونني اليك خشية منك والتماسا لفضلك. فاحفظ على نفسي يحفظ الله عليك نفسك .

دارتوا : (يلتفت عنها) انهضي ـ انهضي . مثل هذا الذعر يقبض عنك النفس (الى برنار) أين الوديعـــة ؟ (تهم مريم بدخول الدار هاربة واذ ترى دارتوا يسير كأنه يريد الدخول تنصرف عنه جارية وتخرج من جهة الساقية وبرنار

يلتفت وينظر في باب الدار كأنه يبحث عن صفية مذعوراً فلما لم ير شيئا يعود . ويلتفت السكونت الى برنار ثم الى هبة الله . ثم يلتفت برنار الي هبة الله ودارتوا ينظر اليهما)

برنار : أين هى ؟ هربت ! ويلاه. فيليب القد كانت أمامك . كيف تركتها ؟

هبة : ماهذا ؟ أتريد أن توقع بى ؟(يروح ويجيء) انني لم أرها

برنار : أنظر لعلها (هبة الله يلتفت هنا وهناك ويذهب يسرة ثم يعود كأنه يبحث عن صفية)

دارتوا : أين تذهب ؟ قف . ماذا تدبران ؟ أين الفتاة ؟

برنار : كانت هنا . فلما شغلنا بأمر ماري وصراخهـا اختفت عن أعيننا

دارتوا : كذبت ياللعين . انك أرسلتها الى اختها . ألم يجيء هذا العربي من أجلها؟

هبة : كلا وحق القديس أيها الامير . ما أنا بعربي . اني انا . .

برنار : هذا فيليب هبة الله الطبيب الذى . . . .

دارتوا : (يقاطعه) ويحك . أتظنني آمنه ؟ اذا كان قد خان

سلطانة وصاحب نعمته فأجدر به أن يخونني (الى هبة الله بشدة) اين الفتاة ؟

هبة : وحق السموات لاأدري ـ ولـكنها كانت هنا (يلتفت إلى برنار ويحاول التكلم فيقفه مايفعل الامير)

دارتوا : (يقبض على لحية برنار) انك تخفيها في دارك لاخي بواتيه ـ اني رايته آتيا الى هذا المكان ساعة شروق الشمس (هنا يدخل الـكونت بواتيه ومعه صفية وهى قابض على ضفائر شعرهاولابس ملبس اخيه سواء بسواء مع اختلاف في لون الحرملة)

صفية :يا أرحم الراحمين ارحمنى

برنار : (فرحا ويتقدم نحوها) هذي هي . شكراً لام الرب(يتقدم بواتيه من أخيهويقبض برنار علي ذراعها قائلا) هذى هي . هذي هي .

دارتوا : (يخاطب أخاه) أين كانت الفتاة ياروبير ؟

بواتيه : قابلتها في الطريق عند منطعف الزعة فحسبتها الفتاة التي فرت منك فأذا هى وديعتنا

دارتوا : وديعتنا ؟ إنها وديعتي وحدي يارو بير

بواتيه : أجل ولكن كان ذلك باتفاق بيننا

دارتوا: ليس على مثل هـذا اتفاق - إن الملك أسلمني إياها وعهد إلى بردها إلى أهلها في حراسة بعض رجالي فهي ملكى حتى أنفذ أمره

بواتيه : ولكنها فرت منك بعد ذلك فأصبحت حرة ثم اسرتهاانا الآن فهي ملكى وحدي

دارتوا : هذا تخريف يا كونت

بواتيه : (بغضب) تخريف !

دارتوا : (بغضب) وحمق وجنون .

بواتيه: انك تهينني يا كونت (يضع يديه على مقبض سيفه)

دارتوا : (يضع يده على مقبض سيفه ويجرده قليلا) حسبك

برنار : (يتقدم بينهما راجياً) لاتقتتلا. لاتقتتلا. لا يليق بالاخوين أن يقتتلا . ان أخا كما الملك قادم الينا هذا الصباح ولعله الآن فى الطريق

بواتيه : (يلتفت وجلا إلى برنار) كيف ؟ الملك آت ؟ من أين لك هذا ؟

برنار : انه وعد أن يزور خادم أمه القديم وهو مار إلى الدير القريب .
(تأتى مريم من جهة الساقية وعلى رأسها جرة (بــلاص) .
وتصل إلى الباب فيلتفت برنار اليها ويخاطبها) قفي يامريم
ضعى عنك هــذه الجرة (تضعها داخل الباب عن يمين)
انظرا (للأميرين) أليست حسناء ناضرة . لايليق بالأخوين
أن يقتتلا ، هلم . أدخلا الدار بهما .
الأميران : لابأس . لا بأس
مريم وصفية : ويلاه . ويلاه !
صفية : (ضارعــة متجهة إلى السماء) رب إني أسلمت اليك أمري .
فنجنى من القوم الظالمين
جواتيه : (يتقدم من صفية) ماذا تفعل الحسناء ؟ تصلي ؟ ما أجمل
صلاتك ؟
دارتوا : (يتقــدم من صفية أيضا ويقف وهو واضــع يديه على
على خاصرتيه) إنا لانريد بك سوءا يامليحة . ادخلي الدار
إن برد الصباح قاس عليك
صفية : اتق الله أيها الأمير وردني الي أسرى عند أخيك . ردني الي

قومك بل الى خادميكم ، إنهم أرعى منكم للحرمات وأعرف بحق المروءة .

برنار : ويحك ياشقية ، أتقولين هذا للأمير ؟

صفية : وسأذكره للملك أيضا ليرى كيف يخون الأمانة أهله .

بواتيه : (يلتفت إلى أخيه) إني نزلت لك عنها يا دارتوا

(يذهب الى مريم)

دارتوا : شكراً

مريم : ويلاه . ويلاه ! أبي . أبي !

صفيه : وابيبرس ! وابيبرس (تبكي)

برنار : (يضحك) بيبرس ؟ سيأتيك بيبرس على براق من السماء

(والكل يضحكون)

دارتوا : هلم . (يميل جهة باب العزبة يحاول جرها من ذراعها)

صفية : واركن الدين ! واركن الدين !

بيبرس : (من الخارج وعلى بعد) لبيك . لبيك! هأنذا يامستغيثا بركن الدين !

هبة : بيبرس يا برنار ! (وتجرى خارجا من جهة الساقية)
برنار : بيبرس ؟
صفية : بيبرس ! إلىّ . إلىّ (تقع مغشيا عليها)
الأميران : (مذعورين) بيبرس ؟ (هنا تسمع دقدقة سنابك خيل راكضة)
دارتوا : ماذا نفعل ؟
برنار : ادخلا الدار بها والزما الباب من وراء ، انه قديم المزلاج
(يحملانها ويدخلان ويدخل برنار وراءهما ويغلقون الباب).
(يدخل بيبرس كما رأيناه أول فصل إلا أنه قد امتطى جواداً مسرجا إسراجاً عربيا فاخرا بكنبوش من الأطلس المزركش ولجام من الذهب ووراءه عبد أسود يلبس قميصا من الصوف وفي يده سيف وعلى رأسه عمامة وبيبرس في عدة القتال فعلي صدره درع وعلى رأسه خوذة وعلى فخذيه لامة مزردة . يكون دخوله من جهة الصفصافة والسيف مسلول في يده)
(إذا رأته مريم هرعت إليه ضارعة وتعلقت بأهداب الكنبوش)

مريم: نجّني- نجّني

بيبرس : لا روع عليك ـ انت بين ذراعي الأسد ـ روّحي عنك روّحي ـ ما خطبك ؟

مريم : أرادوا أن يسلموني الآن إلى الكونت أخي الملك أنا وفتاة أخرى جاءوا بها الينا أسيرة فلما سمعوا صوتك عرفوك فأدخلوها ونسوني هنا والله لاينسى البائسين

بيبرس : ومن أنت ؟

مريم : مريم ربيبة برنار صاحب هذا النجع

بيبرس : يالضيعة المروءة! ومن هذه الفتاة الأسيرة ياترى ؟

مريم : لا أدرى ، ولكنها فتاة تدعي صفية يقال إنها ميرة وهي التي كانت تستغيث بك

بيبرس : يارحمة الله ! صفية ؟

مريم : أجل

بيبرس : اللهم شكراً

صفية : (من الداخل) بيبرس ! بيبرس!

بيبرس : (ينزل عن جواده) لبيك ياصفية ! ـ لبيك ! هأنذا

(يخاطب العبد) خذ الجواد الى الترعة وانتظرني هناك
وكن مرهف الأذن . أتعرف صوت بوق ؟

العبد : كيف لا يامولاى (يخرج بالجواد من جهة الساقية)

بيبرس : (يتقدم الى الباب ويدق عليه بقبضة سيفه) افتحوا

برنار : لن نفتح لك

صفية : (بصوت ضعيف) بيبرس أنقذني

بيبرس : لبيك ياحياة النفس (ويدفع الباب فينفتح ويجرى من كان وراءه
من الرجال ويخطو خطوة الى الداخل فيجد صفية أمامه
فتلقي بنفسها في أحضانه فيرجع بها الى المرزح)

صفية : ركن الدين ! ركن الدين !

بيبرس : هأنذا بين يديك . سرّى عنك .

صفية : (بفزع) سر بى من هذا المكان بحقي عليك .

بيبرس : أنت معي فلا توجلي .

صفية : سر بى بحقي عليك .

بيبرس . لاتحزنى . لقد ظفر بيبرس بك ولم يظفر هذا السيف بمناه .

وقد آليت لأهتكن حجاب القلب ممن هتك لك حجابا
(يهم بالدخول)

صفية : (تتعلق به) لا تدخل . لا تدخل .

مريم : لا تتركنا وحدنا

صفية : سر بي بحق الله يا بيبرس ، إن رؤية هذا النجع تذعر نفسي

بيبرس : وقسمي ياصفية . قسمي إني ماحنثت فى حياتى مرة؟

صفية : (تجره) ولن تحنث يا ركن الدين . انك ملاقيهم عما قريب فبر بقسمك يومئذ

مريم : أجل . أجل . النجاة بالعرض أولى

بيبرس : سري عنك . هيا بنا

(يتحول بيبرس بهما صوب الساقية وتسير . صفية الى يمينه ومريم الى يساره الا أنها تكون ملتفتة الى الوراء واذا بالاميرين قد خرجا من الدار والسيف مشهور فى ايديهما واذ تلمحهما مريم تصرخ)

مريم : سيفك أيها الامير !

بيبرس : (يلتفت ويجرد سيفه على عجل وتقف الفتاتان وراءه

ويناز لهما) ياسبة الرجال أكذلك دأبكما؟

برنار : (يخرج من الدار ويراقب القتال هنيهة ثم ينبهه صوت أقدام آتية من جهة الصفصافة) الملك أيها الامراء !

(يلتفت الأميران ثم يتراجعان ويقفان الى جوار جدار العزبة — ويدخل الملك لويس التاسع ومعه جنديان فى لباس الصليبيين ، المغفر « طاقية من الزرد » والقميص المزرد والسيف مدلى من حزام في الوسط والسروال المزرد أيضا والواصل الى القدمين .

أما الملك فقد كان لباسه على صورة خاصة به فعلى رأسه خوذة من صفر مذهب وعلى بدنه قميص من حديد مشبك وسروال مثل جنوده الا أنه قد لبس فوق القميص دراعة قصيرة لا أكمام لها زرقاء اللون سميكة وتمنطق عليها الحزام من مربعات سميكة من الصفر المذهب علقت فيها جعبة سيف مستقيم طويل . وقد وضع اذ ذاك على صدره حرملة من الجوخ الأزرق مسجفة ومبطنة بفراء)

الملك : ماهذا؟ بواتيه ودارتوا يقاتلان رجلا؟

برنار : إنما يقاتلان أمة أيها الملك . هذا بيبرس البندقدارى

الملك : بيبرس البندقداري ! سلام أيها الأمير العظيم

بيبرس : أسلام في مثل هذه الساعة ؟

الملك : أجل . أزعمت أنا لا نعرف حق البطولة ؟

بيبرس : اذن فعليك السلام أيها الملك

الملك : ماذا جاء بك الينا وحدك ؟ ان مخيمنا على مرمي السهم منك

بيبرس : من كان معه مثل سيفي وقلبي لايستكثر الرجال ولا يأبه للاهوال ، ولكنى كنت في طريقي اليك

الملك : الي أنا؟

بيبرس: اليك أنت

الملك : ولكنى أراك التجأت الى هذه الدار دوني

بيبرس : الله ! الله أيها ؟ أيقال هذا لبيبرس ؟

الملك : وهل يجمل ببيبرس ان يطرق الديار وهي حرم الا باذن اهلها؟ اني اراهم يأبونها عليك

بيبرس : ماجئت أنتهك حرمة وما ينبغي لمثلي ، ولكنى تبيذت في هذه الدر ماخورا فوقفت أطهرها بحد هذا الحسام .

الملك : هذى دارشيخ طاهرتقي يا بيبرس، أعرفه منذ عهد طفولتي
بيبرس : إذن فسل هذه الفتاة، مريم ،عما أصابها اليوم . لقد أراد أحد أخويك أن يبغي عليها في بيت مولاها الطاهر التقي بعلمه واختياره

الملك : (ينظر الى مريم فتطرق خجلا) وى !

بيبرس : وسلها عن هذه الأميرة، عن أخت امرأة سلطاننا المعظم .

الملك : الأميرة صفية ؟

بيبرس : أجل . الأميرة صفيـة . أما والله إن يدى لتنتفض وإن سيفي ليهتز الآن في قرابه

الملك : (حائراً متكدراً) ماذا أسمع ؟ دارتوا . بواتيـه . أهذه مروءتك يا بواتيه؟وانت يادارتوا ، أهذا دأبك ؟ اما كفاك ان تضرب فسطاط لهوك الي جانب فسطاط الملكة في دمياط حتى تعمل على فضيحة أسرتك فى هذه الديار، وخيانة امانتي فيما ائتمنتك عليه ؟ايها الامير الكبير بيبرس ، اشهد انى برىء منهما

بيبرس : ولـكنك اسرتها في دمياط أ كان يجمل بكم هذا ؟ ام جئتم

هذى الديار باسم الرذيلة لا باسم الله ؟

الملك : كلا وحق القديسين جميعا . وانما خبرت ان جندياً من جنودي طاش به رشده فاسرها ، وعلمت من هي فخفت ان يصيبها أذى فاخذتها الى فسطاطي على الفور وانزلتها في ضيافة الملكة نفسها حتى اردها الي اختها . ولقد عهدت بالأمر الى اقرب الناس مني منذ ليلتين ولكن الشيطان اغواه كما رأيت.

صفية : صدق الملك يا ركن الدين . انه أمير نبيل ليس في قومه من يعد له فى نبله أو يدانيه في تقواه .

بيبرس : شكراً لك أيها الملك شكراً . من أجل هذا كنت أشعر أنى ملاق فرنسيا هماما

الملك : شكراً لك يا بيبرس . ولكن من ذا خبرك انها ههنا؟

بيبرس : كنت في سبيلي اليك في دمياط من اجلها ثقة مني بمروءتك وانك لاتؤثر الظفر بعدوك على الظفر بنفسك وبثواب الله ، لكثرة مابلغنا عنك ايها الفرنسى العظيم

الملك : يتقدم نحو بيبرس) يالله ! (يسلم على بيبرس فيسلم

عليه) انك كبير القلب ايها الامير ، فكيف جئت الى هذه الدار ؟

بيبرس : كنت مارا بهذا النجع فسمعت صوت استغاثة وعلمت بما كان من بعض اهله وهممت ان انتقم فأقسمت على هذه الكريمة (مشيرا الى صفيه) الا ان رحل بها على الفور . وتوسلت الى هذه الفتاة الطاهرة (مشيرا الى مريم) ان آخذها معي. فما سرت بهما حتى رايت اخويك قد خرجا من الدار ود هماني من وراء ظهري

الملك : يا لفضيحة الابطال !

بيبرس : لماذا استصحبتهما أيها الملك قبل أن تم عليهما درس المروءة؟ اني أراهما من السوقة أو أدني .

الملك : أتسمع هذا يا بواتيه؟ أتسمع يا دارتو؟ لعمرى إنه ليدمغكما بالحق

بيبرس : ماخاب ظنى فيك أيها الملك ، لقد عذرت وأعذرت فتقبل شكرى وثنائي

الملك : شكراً

بيبرس : هل للملك أن يجيبنى لماذا يغزو بلادنا اليوم وقد

حاول قومه ذلك من قبل على يد يوحنا دو ريان فأعجزناهم بقوة الله ؟ والتمسوا الصلح ضارعين واجبناهم اليه مكرهين. وأقسموا وأقسمنا على الولاء ؟

الملك : هي مشيئة الرب أيها الامير وعهدنا معه وما أنا مما ينقض العهد . ولقد جاءكم كتابى فأما سلمتم فسلمتم أو أبيتم فرمينا أعناقكم بأسياف القضاء

بيبرس : إذن فلتكن مشيئة الله أيها الملك . لو كنت تجهل أسيافنا لذكرناك بها ولكنك ذقت شواظها غير مرة . وهذه أيام إذ كان لك أولها حتى اليوم فعليك آخرها . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . أفيأذن لى الملك بالانصراف ؟

الملك : إذا شئت أيها الأمير . انت ضيفنا الآن لا عدو ، على أن تنزل عن سيفك هذا

بيبرس : انزل لك عن سيفى ؟

الملك : أجل

بيبرس : انه ليرد مشيئه الدهر أيها الملك. كذلك عودنى منذ صحبني وما عهد البحيرة منكم ببعيد

الملك : أعرف ذلك أيها الامير . فليس من الشهامه ولا من المروءة أن تنازل به الاقران

بيبرس : (بتعجب ودهشه) لماذا ؟

الملك : لانه مسحور . أليس هذا السيف سيف رمسيس عثرت عليه فى احد القبور فصاحبك حتى اليوم ووقاك ضربة الفارس الكمي ولو وقفت دونه لا تبدى حراكا ؟

بيبرس : وي ! وي! من اين لك هذا ؟ لا يليق بمثل الملك لويس أن يقول هذا الكلام *

الملك : كيف لا أصدق وكنت عند البحيرة لا تشير به الا قاتلا ولا تهوي به إلا لاحداً ولا تشرعه الا والنفوس عالقة عليه كما تعلق ذرات الحديد بالمغناطيس ؟

بيبرس : (يضحك ساخراً) كلا أيها الملك . ليس هذا السيف سيف رمسيس والا لأكله الصدأ بل انما هو سيفى أنا ؛ سيف ركن الدين بيبرس البندقداري : تتناول المقبض منه

* يؤخذ من كتاب جوانفيل ان لويس كان ممن يصدقون بمثل هذه الخرافات

قبضة منى لو تناولت رأس الاسد الغضنفر لتهشم، أو صفعت هام ذى الغفارة المزرد لتحطم ،أولمست عنق كند مصعر خده لاندك وتهدم . لقد سقيته فى الكرك وحمص ماء حياة الف من الاسبطاريين ومثله من الميكاليين ور ويتها ارواح الجحفلين من الفرنجه حيال طبريه وانطاكيه وطرابلس فأصبحت وعمرى بذلك عمر الالفين وعزمي عزم الجحفلين ولو نزلت لك اليوم عنه معاوضة من حديدة اخرى ما فترت همتى ولا كلت عزمتى . واليك برهان المقال (يلقي السيف من يده مجردا ثم يخرج من بين ثيابه بوقا صغيرا من الذهب وينفخ به مرتين ثم ثلاثا)

الملك : شكراً لك أيها الأمير . الآن أطلق سراحك . شكراً لك على نزولك عن هذا السيف واعتذارا اليك مما أصاب الفتاة

بيبرس : (بدهشة عظيمة) وى ! (يمد صوته فيها)

الملك : وأهب اليك أخت أميرتكم على أن ترد الينا ربيبة خادمنا برنار . فما قولك فى هذا ؟

بيبرس : يالله ! أعطني عوض السيف وتكلم . أم رهبة كانت دعتك لا اكراما .

الملك: بل اني رأيتك في قبضة أخوي فأردت أن أسدي اليك خيراً يروى . رد الينافتاتنا

مريم: لن أبقى بهذا النجع بعد يومي

برنار : مولاي ! اني رجل مسن . من يخدمنى من بعدها ؟

الملك : انها أختنا فى المسيحيه يابيبرس وأنا أمين المسيحيه حيث أكون فلا بد أن تردها الينا .

بيبرس : انك تمني نفسك المحال ايها الملك . ان كانت هذي الفتاة مريم أختا لكم فى الدين فهى أختى فى الوطن والوطن ابقي

مريم : (تمسك بأردان بيبرس) لم تعد بى حاجه اليكم ايها القوم واشهد اللهم اني في المسلمين (تنزع صليبا كان معلقا فى سمط على صدرها وتلقيه فى وجوههم) سأذهب معك يابيبرس فلا تتركنى .

بيبرس : لايخيب بيبرس رجاء مستغيث . هيا بنا (يلتمت صوب الساقيه ويشير الملك الي أحدالجنديين بالتقاط سيف بيبرس

وبيبرس ملتفت عنه)

صفيه : (ولـكن صفيه ترى هذه الاشارة فتجرى الى السيف وهي تجرد من صدرها خنجراً صغيرا تضرب به الجندى في ذراعه فيرتد متأوها قبل أن يلمس السيف وتتناوله هي عن الأرض وتجري متراجعه صارخه لبيبرس) سيفك يا بيبرس! (تناوله السيف بيدها اليسري فيأخذه منها)

الملك : اذن فدمك عليك .قسرا أيها الرجال .

بيبرس : (يكون قد هجم عليه بواتيه ودارتوا بالسيف فيحارب بيمينه مداورا فاذا بلغ برنار امسك ثيابه بيـده اليسري ووضعه في مواجهة دارتوا درية له ثم ينقض عـــلي بواتيه فيجرحه ويسقط السيف من يده فيجرى من وجهه وعندئذ يرمي بيبرس برنار من يده فيقع ثم ينهض ويخرج هاربا من باب داره فيرسل الملك على بيبرس جنديه الآخر وينازل بيبرس هو ايضا . وإذا بالعبد مسعود قد دخل فرأى مافيه سيده فيقول)

مسعود: ياغارة الله ! (يجرد سيفه ويهجم علي الجندي فيفر من.

امامه ويميـــل على الملك فيجرى الملك هو ودار توا وراء
الصفصافه ويجري بيبرس والعبد وراءهما)

صفيه : بيبرس ! بيبرس ! لاتتركنى .

بيبرس : (يعود) ارجع يامسعود (يعود مسعود)

صفيه : احضر الجواد يامسعود .

مريم : ها هو ذاقد حضر بنفسه ليشهد هزيمه الابطال (تجرى صوب الساقيه وتجر الجواد من لجامه)

بيبرس : مرحباً . تأبي إلا ان تشهد وقيعه مولاك ؟ هاأنت ذا تراهم يفرون . هلم ياصفيه اركبي .

صفيه : (تركب) شكرا لله

بيبرس : وأنت يامريم تعالى اركبي وراء مولاتك (يأخذها من ضبعيها ويرفعها وراء صفيه) سر بالجواد يامسعود (يلتفت إلي الوراء) وأنتم أيها الأمراء الكاذبون ان كان يبلغكم الآن صوتي فاعلموا انى كرهت أن أتابع الجبناء (يخرجون)

ستار

الفصل الثالث

المنظـر

يزاح الستار عن رحبة قصر الأمـير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ فى المنصورة . والرحبة يكتنفها جدار سور عال يرى في مواجهة النـاظر وإلى يساره . وفي الجزء الايسر من هذا السور بالقرب من الركن الاعلى باب كبير هو الباب العام للقصر . وهناك بناء منزل الي اليمين عربى الطراز يصعد الى مدخله بدرج طويل من الرخام يبتدىء من مؤخر المرزخ بحيث يكون بينـه وبين السور مسافة كبيرة . وينتهي الدرج بشرفة مربعة ذات قبـة محمولة على أعمدة من الرخام .وباب المنزل ظاهر من تحتها . وهناك باب صغير إلى الجانب الادنى من الدار يفتح على الرحبة . وأمام البيت شجرة تحتها مقعد . يرى صبيح الحبشي جالساً على المقعـد . وهو لابس قميصا من الصوف الابيض قصيرا منطق عليه . وفي المنطقة سيف وعلى ظهره عباءة من الصوف .

صبيح : تري أتظل المنصورة عامرة بأهلها أم ينتاب هذه الدولة ما انتاب الفواطم من قبل ؟ ما للمدينة هادئة ساكنة كأنما هاجر منها أهلها ؟ أيتها المنصورة الحبيبة إلى نفسى لم يمض عليك في الدنيا ثلاثون عاما كنت فيها جنة الجنات، يخطر فى رحابك الملوك وتفخر بجناتك السلاطين . أين سيدك الذي ابتناك ؟ أين السلطان الكامل ؟ أين موساك وأين عيساك . ترى أتمضى بك الهزيمة أم أن نجمك مشرق في السماء ؟ لكأننى والله في بيداء تتجاوب فيها الاصداء . رب لاأسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطف فيه .

(يدخل سهيل من باب الجدار)

سهيل : صبيح !

صبيح : (يلتفت) من هذا ؟ سهيل ؟ مرحبا . ماذا جاء بك فى هذه الساعة ؟

سهيل : كيف حال السيدة صفية ؟ (يسلم عليه)

صبيح : بخير . لعلها الان نائمة . ولكنى لاأدرى لماذا أمر الامير بيبرس بنقلها الي هذي الدار هي ووصيفتها القبطية ؟ انه لم

يبن عليها بعد حتي يكون له كل هذا

سهيل : هي له على كل حال يا صبيح باذن مولاك السلطان الصالح ورضاه

صبيح : أعرف ذلك . ولكن العادة عندنا ...

سهيل : أيه عادة ياصبيح ! أسبقت مولاك من كيفا لتقول لنا هذا الكلام ؟ لو كانت سيدتنا صفيه بنتا للسلطان نفسه ما أباها عليه . انه زعيم هذه الدولة ولا مراء . هون عليك . لعمري لو انني خيرت ...

صبيح : (يقاطعه) أجل . أجل . ولكن أما كان أولى أن يبقيها فى جوار أخيها فى مثل هذه الآونة ؟

سهيل : إن أخيها آتيه الى هذه الدار

صبيح : آتيه الى هذه الدار ؟

سهيل : أجل .

صبيح : ولماذا تترك قصرها ؟

سهيل : كذلك رأي محسن وبيبرس وستعرف السر في ذلك حين يحضرون بها

صبيح : ومتي تحضر ؟

سهيل : الآن . إنى خليت القصر وهي تركب محملها الصغير . ولعلها لا تبعد الآن عن هذى الدار كثيرا (يذهب ويطل من الباب) انظر (يشير اليه بالتقدم) اترى هؤلاء المشاعليه والضويه

صبيح : مرحبا مرحباً بشجرة الدر . ما رأيت فى النساء مثل هذه المرأة تقي وحزما

سهيل : ولا فى الرجال والله يا صبيح

(هنا تدخل المشاعليه والضوية يتقدمون شجرة الدر في هودج صغير على شكل محمل مصر . والى جوارها بيبرس ونخر الدين ومحسن سائرين على الاقدام وهم في عدة القتال من خوذ ودروع وسيوف ويكون لباس الضوية لباس صبيح تماما)

محسن : أنزلوا المحمل عن الاعناق يارجال

(يضعون المحمل وتنزل منه شجرة الدر ملثمة ثم يسترسل محسن موجها الخطاب الى صبيح) وأنت يا صبيح خـــذ

المحمل الي مكان من حظيرة هذا القصر . وليقف من يبقي منكم على مقربة من مدخله

صبيح : سمعا يامولاى (يأخذون المحمل ومعهم صبيح ويسيرون به وراء الدار من اعلى المرزح) من هنا ، إلى اليمين (ويخرجون وتتمشي شجرة الدر حتي تجلس على المقعد)

شجرة : أترى هذا المكان آمن يار كن الدين ؟

بيبرس : أجل ياسيدتي ان الفرنسيين يحاولون أن يعبروا مخاضة فى أهداب بحر أشموم دلهم عليها خوان ممن تتكشف نفوسهم عن فطرتها فى مثل هذه الأيام . ولكن عز الدين وقطز وقلاون ولبان وتنكز قاعدون لهم على الماء بالمرصاد

شجرة : فلماذا حملتمونى على مغادرة قصري ؟

محسن : انما الحازم من تدبر يامولاتى . انا وان كنا نثق بأخواننا ونعلم انه لن يفلت منهم خيال فرنسى انما نتخذ الحيطة ولا بأس بها في مثل هذه الأيام

بيبرس : إنا قليلون في هذه البقاع ، ونخشى أن يؤثر العدو قتل بعض رجاله في هذا العبور على أن يظل يتفيأ نيراننا

الأغريقية وبئس الظلال . كم من فارس قتلناه وكوند *
من أقرباء الملك أسرناه وبرج لهم أحرقناه . وكم مركب
أغرقناه وجسر هدمناه .وكم طلعنا عليهم بكل حيلة فهل
تعجبين أن يقدموا على العبور مستيئسين . وإذا قدر لهم
دخول المنصورة كان أول همهم أن يدهموا القصر
ويأسروا مولاتنا ، فما هم هؤلاء إلا أكبر حرماتنا :
الدين والعرض

محسن : أجل فأنهم يعلمون أننا نجد المرأة شرفا ماثلا

بيبرس: وقد اجتمع لمولاتنا أدامها الله آيات ديننا وجلال
سلطاننا . لذلك رأينا نقلك إلى دار الأمير فخر الدين هذه ،
حتى إذا قدر لهم أن يدهموا القصر كنت فى مأمن من
أذاهم وأعملنا نحن السيوف في رقابهم .

شجرة : شكرا لكم لقد أصبتم

فخر : ولكن ماذا فعلتم بالجواري ؟

محسن : اشخصتهن صبيحة اليوم إلى جنود يحرستهن بعض جندى

---

* هكذا كانوا ينطقون بكلمة « كونت »

فخر : وماذا فعلتم بأوراق سلطاننا ؟

سهيل : هي في حراستي ياسيدى الأتابك .

فخر : أهي فى المنصورة ؟

سهيل : هي في حمي السلطان أيها الامير .

فخر : حسنا ولكن (يلتفت إلي شجرة الدر .) أما كان أولى أن تكون مولاتنا (يلتفت إلي بيبرس) على رأس خاصتها فى سمنود ؟ إنها آمن من المنصورة على كل حال .

شجرة : (تنهض) إذا لم تكن هذه المنصورة دارة أمن ونصر فما سمنود إلا القطيعة والشر . أن خاصتي اليوم الرجال لا النساء يافخر الدين . وقد ألقيتم إليّ زمام الدولة ووكلتم إلي جمع أمركم حتى يأتى سلطانكم ، فمن الخطل أن أترككم فى حومة الوغي ثم أمضى . بل هل يصيب الاذى شجرة الدر ودون دارها بطل منكم ؟ كلا والله . ألا إني إذا تلفت فلم أجده قريبا منى جعلت من هذا الخنجر بديلا منه . (تجرده) فأذا خطا إلي باغ بعدكم بأذى كان الخنجر أسرع منه خطوا إلى قلبي لا افتداء لشجرة الدر ولكن

عصمة لاميرة فى المسلمين أن تقع في أيدي الصليبيين

بيبرس : مرحي لسيدة النساء

شجرة : فاذا مت الي جوار رجالى وسال دمي خليطا بدماء أبطالي
زففت يوم الحشر الى الجنة شهيدة في الشهداء تحف من
حولى الملائكة الاطهار ولنعم عقبى الدار

محسن : طوبى لك ياسيدتى

سهيل : يقل في الناس مثل هذا التقي . لقد والله صدق اقطاى

شجرة : والآن أيها الأمراء ليست الدولة بسلطانها إنما هي برجالها .
كذلك أجمع رأيكم ليلة النوبة ، والساعة آتية لا ريب فيها
فأما نصر يطمئن به مضطرب الأمر ، والا فاتمها عليكم .
هذه ساعة لها مابعدها . فمن قضى في ذمتها شهيداً تفتحت له
أبواب الجنة مشكورا ، ومن عاش بعدها كريما أزلفت
اليه طيبات الدنيا مأجوراً ، ولثواب الآخرة خير وأبقي .

بيبرس : أيتها الأميرة ما دامت هذه السيوف فى أيدينا ، وهذا
الايمان في قلوبنا والحق في جانبنا والله بعينه يرقبنا فالنصر
باذن الله لنا .

محسن : أما أنا « متمثلا »

قلست أبالى حين أقتل مسلما   على أى جنب كان في الله مصرعي

نجم : « متمثلا »

لي ذلة اليكم فاعتذر   سوف أكيس بعدها وانشمر

واجمع الأمر الشتيت المنتشر

شجرة : الآن استودعكم الله أيها الامراء : سيروا على بركة الله واقرأوا الاجناد منى السلام (تصعد درج الدار حتى تختفى وسهيل وراءها)

بيبرس: السلام على مولاتنا ورحمة الله

نجم : أين تذهب الآن يابيبرس

بيبرس: سأرابط بجيشى عند القصر حتى اذا جاءوا اليه حكمت السيف بينى وبينهم

نجم : وانت ياجمال الدين؟

محسن : لا يهمنى من هذه الملحمة الا أن اظفر بملكهم حيا أو ميتا . وسأتربص بهم

نجم : ألا تخشي ان يبصرك ناظورهم فيأخذوا عليك الطريق ؟

محسن : سأسير بجندي جنوبا ثم ألتف على عقيصة البحر . فاذا سار
الملك بجنده عندها ضربت في ساقته إذ ذاك وتناولت
رأسه وانضمت بعد ذلك الي قطر
بيبرس: لا بأس بذلك ولكني اخشى ان يطول بك المسير .
فخر : لا خوف من ذلك . إني حشدت رجالي على الجانب الغربي
من النيل وحملت شواني وسفني مفككة علي ظهور الجمال
الى بحر المحلة وسينزل بها رجالي حتى إذا ساروا بها الى
البحر الكبير دفعوا شواني الفرنسيس اليك يابيبرس امض
فيما انت فيه ياجمال الدين
محسن : توكلت علي الله (ينادى) صبيح
صبيح : (يدخل) مولاى
محسن : هيىء جيادنا
صبيح : سمعاً يامولاي (يخرج من الباب الكبير)
محسن : استودعكم الله (يعانق فخر الدين) فى ذمة الله يافخر الدين
فخر : في ذمة الله يا محسن
محسن : (يعانق بيبرس) فى ذمة الله يابيبرس (يخرج محسن من
باب الرحمة)

بيبرس : فى ذمة الله . (يعانقــه ويخرج محسن) وأنت يافخر الدين
أري أن تبقى الساعــة بدارك ريثما تنفض عنك غبار الجهاد
إن الفرنجة لايستطيعون الآن فكاكا

فخر : كلا . كلا . ليس هذا أوان الراحة والعدو ملح علينا . ولكنا الآن في ساعة لا نعرف أنجوزها الى الدنيا ام الى الآخرة . فلا بــد لى من التوضؤ والصلاة لله حتى اذا توفانى اليه لقيتــه طاهراً . استودعك الله (يهم بعناقه)

بيبرس . استودعك الله يافخر الدين (يتعانقان ثم يخرج فخر الدين مارا من وراء الدار فيسترسل بيبرس متأثرا) يالله ! لماذا ضمنى فخر الدين هذه الضمة ! لعمرى ما شعرت بمثلها إلا في صدر أبى . أفراقاً يافخر الدين ؟ اللهم لا تفرق بيننا . فان كنت كتبت له دارك قبلي فاشفعه بى . إن الحياة لا تطيب لى من بعده .

صفية : (هنا تبدو صفية تحت القبة وتنزل الدرج فاذا ماوصلت إلى آخره قالت) ألا تطيب معي يا ركن الدين ؟

بيبرس : (يلتفت اليها) سيدتى (يتقدم اليها ويحتضنها) . أجل .

أيتها الحبيبة . أنت كل الحياة عنــدى . أم رابك وداعي
لفخر الدين ؟

صفية : لقد حسبت كل فؤادك لي يا بيبرس ؟

بيبرس: هو كذلك يا كل مناى

صفية : فلماذا أبيت أن تعقدلنا أختي يوم عدت بي اليها ؟ حتى لا
تفارقنى لحظة

بيبرس : آه ياصفية . أتظنين أني كنت أستطيع البقاء في جوارك

صفية : لم لا ؟

بيبرس : هل رأيتنى جئت القصر منذ عدت إلا مرات معدودة ؟

صفية : لقد جئت خمس مرات ، لم أجتمع بك فيها إلا مرة واحدة
وكانت فواقا ثم لم تبعث إلى فيما بقي منها بسلام

بيبرس : وى ! ألم تحمل اليك أختك عني شيئا أبدا ؟

صفية : إنها لم تحادثنى منذ جئت الا قليلا . كلما حاولت أن
أخلو بها رأيتها بين أوراق ورسائل وقصص . ثم لا تخلو
لحظة حتى يتقدم اليها فارس من قبلكم فى شورى أو في
نبأ من نائب السلطنة في القاهرة

بيبرس : وماذا في ذلك ياصفية ؟ (ينظر اليها نظرة العاشق الطروب)

صفية : إنكم أفسدتم أختي يابيبرس بما عهدتم اليها . إن النساء لم تخلق لهذا العناء . أما ترى ورد وجنتيها قد ذبل وهي في ريعان الشباب

بيبرس : حسبي ورد هذي الخدود يا صفية

صفية : دع عنك هذا . لماذا لم تتول الامر عنها ؟

بيبرس : (يضحك بلطف) وي ! أأنت تؤثرين . . .

صفية : كلا . ولكنك كنت تبقي قريبا مني

بيبرس : ومصر ياصفية ؟ من ذا ينقذ مصر والعدو ملح علينا ؟

صفية : كنت تذهب لقتاله من حين إلي حين

بيبرس : كذلك فعلت يا أحب الناس الى . فلم أستطع أن أزور القصر إلا خمس مرات فى ثلاثة أشهر . أفتبين لك عذرى ؟

صفية : كلا .

بيبرس : إذن فاصفحي عنى . الله يعلم لم يطل بقاء هؤلاء القوم بديار ناغيرك أيتها الحبيبة

صفية : غيرى ؟

بيبرس : أجل . لم أجد لى من زماني ساعة للتفكير في مساومة القوم عن أنفسهم حتى يبدو لى طيف صفيــة ماثلا فيشغلنى بهاؤه عن القيام الي الأعداء : و كأنما أوثر أن تنقضى الحياة فى مثل هذا الحـلم الشهي فلا ينصرف عنك خاطرى حتى يصرف الطيف عنى ناشد من أمرائي . فالذنب ذنبك ياصفية

صفية : إذن فابغضنى يار كن الدين حتى تنقضى الحرب وتـكون مني قريبا كما نحن الآن ، ابغضنى

بيبرس : كيف يبغض الانسان بملكه كل هذا ياصفية ؟

(هنا يسمع نفير مذعر مستمر ،يلتفت بيبرس يتسمع)وى!

(وتبدو عليه علائم الاهتمام الشديد فينهض)

صفية : (مذعورة) ما هذا ؟

بيبرس: هذا النفيرياصفية.داركأيتها الحبيبة !

صفية : (مذعورة) ماذا جرى ؟

بيبرس: ان الفرنسيس قد دهموا المنصورة ! الوداع

صفية : أتتركنى ؟

بيبرس: سأعود اليك عما قريب. لاتجزعي. خدرك يا كل المني . اني ذاهب الآن الى القصر فلا يفوتني أن أرقبك . روحي لك فداء ياصفية ، ولكن اليوم يومي فان كان علىّ فهو على مصر كلها وإن كان لى فهو لمصر كلها . الوداع : زوديني بدعواتك

صفية : الوداع ياركن الدين . الله معـــك . ردك الله الى سالماً منصوراً (يتعانقان) في ذمة الله يابيبرس

بيبرس: في ذمه الله (يخرج بيبرس مهـرولا وقد شهر السيف في يده وتجلس صفية على المقعد ويداها ممدودتان ومعقودتان بين ركبتيها)

صفية : اللهم لاتفـرق بيننا ولا تزد حرقتي عليه نارا . رده الي سالما (تفـكر مطرقة) لا ، انه لا يفجعني فيه . ويلاه . (تضرخ) بيبرس(تضع وجهها بين يديها وتبكى . وهنـــا تأتي مريم فترى صفيه جالسة على المقعد)

مريم : سيدتى صفية ! أين أنت ؟

صفيه : هنا يامريم . تعالى

مريم : (تنزل اليها) مالك باكية .إأنت بخير ياسيدتى

صفيه : كيف أكون بخير يامريم والعدو قد دهمنا وركن الدين قدساروحده إلى القصر ؟

مريم : أأنت تخشين بأسا على الأمير ياسيدتى ؟

صفيه : كيف لايامريم ؟ ان العدو لايقصد الا القصر . وقد سار الامير اليه وحده

مريم : الله حافظه من كل سوء . لو أريد له أذى لـكان ذلك ليلة فارسكور . اطمئنى ياسيدتي . لايليق بعروس عنترة المصريين أن تكون إلا عبلة . هذا يوم بيبرس ياسيدتي . سيلتقي بهم فيفنى جموعهم ، وتضع الحرب أوزارها ويعود اليك باسما . هيا ياسيدتي تهيئي لعرسك ، وتوكلي على الله هلم الي الدار (تتناول يدها)

صفيه : (تنهض وتميل صوب عتبة الدار هى ومريم) اني توكلت على الله

(واذا بهبة الله يدخل وتكون صفيه على وشك صعود السلم وتلتفت مريم ويكون قد غير ثيابه فهو لابس بوغلطاق *

* معطف كان لبس القوم يومئذ وهي أصل كلمة بالطو .

أحمر على قفطان ومعمم بعمامة صفراء على كلوته من الصوف)

مريم : وى ! من أنت أيها الرجل . ويحي ! فيليب ؟

صفية : (تعود) هذا هبة الله الطبيب يامريم، لاتذعري .

مريم : وحق الله ياسيدتي . . . .

هبة : (مقاطعا) سلام أيتها الأميرة

صفيه : مرحباً بهبة الله .

مريم : هذا فيليب الذى كان يلم بنا في فارسكور

هبة : (يتقدم) كيف لاتعرفين هبة الله طبيب السلطان وامرأته وطبيب مولاتى هذه منذ اعوام ؟ الا تتذكرين تلك الايام ايتها الاميرة ؟

صفيه : بل اذكرها . فى حلب على ما اظن

هبة : اجل في حلب ، في حلب

صفيه : ماذا جاء بك ياهبة الله ؟ (تعود الي المقعد وتجلس . ويأتي هبة الله وراءها)

هبة : لاادري ، ولكنى خرجت من الصلاة قبل اداء السنة فبحثت عن الامير فخر الدين لأمر يهمه الوقوف عليه من

حركات الفرنسيس فلم اجده . فجئت انشده فى داره ام تريننى اخطأت ؟

صفيه : كيف هذا ؟ هذى دار الأمير فخر الدين ولكنه هجرها بأهله منذ أسبوع وجىء بنا اليها ليلة أمس . أفلا تدرى ذلك ؟

هبة : كلا . أتراه عسكر علي الشاطيء ؟

صفيه : ولا تدرى هذا أيضاً . ان الشاطيء قريب تلمحه العين . افتكون من رجال القصر ولا تدري ؟ اين كنت كل هذه الايام ؟

هبة : نحن الاطباء لا يعنينا الا تولى المرضى بالعناية اعداء كانوا او اصدقاء

صفية : ياعجبي منك ياهبة الله . ليس الطب الا عرضا . ولو لم تكن طبيبا لكنت كاتبا او اميراً . ولست اظن احداً من هؤلاء يجهل مكانه الآن من هذه الحرب الضروس . بل الم تجىء الآن تنهي الى فخر الدين امرا يهمه الوقوف عليه من حركات الفرنسيس ؟

هبة : صدقت ياسيدتي ولكن لعلها هموم تنسى الانسان نفسه فلا يدري ماذا يقول . اين الامير بيبرس الآن ؟

صفية : ذهب الي القصر لحراسته ثم يعود الينا ان شاء سالماً . كذلك وعدني ولن يخلف الله وعده

هبة : كتب الله له السلامة

صفيه : آمين

هبة : (يبلع ريقه) هل من شربة ماء ؟ (يتلفت) ليكاد الظمأ يقتلني

صفيه: على بكوبة ماء يامريم . ان هذا اليوم كأيام الصيف وان كنا فى اذيال طوبه*

مريم : (تذهب وهى تتمتم) فيليب بعينه . اني لا استغش عيني

هبة : الآن أستطيع الكلام

صفيه : وماذا كان يمنعك منه ؟ أنت تخشى مريم؟

هبه : مريم؟ فتاة فارسكور؟ كلا . ولكن خبريني ياسيدتي .

---

* كان ذلك فى يوم الثلاثاء الذى يقع قبل الصوم الكبير ويكون عادة فى فبراير

ألا ترين أني أتلعثم ولا أدرى ماذا أقول ؟

صفيه : (تضحك متهكمة) لعله حر الشتاء قد آذاك أيها الطبيب !

هبة : أجل ياسيدتي ولكنه حر الشوق الى ساعه قضيتها في حلب منذ عامين . لقد كنت أجالس يومئذ فتاة ساحرة العينين تصغر عنك سنتين . وكانت أختها مريضه وصهرها مشغولا بالقتال وهي قلقه البال عليها . فوعدتني هذي الفتاة الرائعه الحسن ان أنا شفيت لها اختها ان تجزيني خيرا فاستوثقت مما وعدت . فآلت على ذلك حلفة ولست أدرى أتذكر الحسناء وعدها أم لا ؟

صفية : بلي

هبة : أتعرفينها ؟

صفية : (ضاحكة في أدب) كأني لا أجهلها

هبة : وقد جعل الله شفاء أختها على يدي والحمد لله ، ولكنها لم تف لي بما وعدت

صفية : لبعد الشقة ياهبة الله

هبة : الحمد الله على ذلك

صفية : لماذا ؟

هبة : كأن الله لم يجدني أحوج الى برها بالوعدمنى اليه اليوم فارجأني حتى ساق قدمي الى هذا المكان . ترى أتصدق الحسناء وعدها ؟

صفيه : أجل ياهبه الله ان استطعت

هبه : اذن فحاجتى اليك أن تخبئيني في هذا القصر يوما كاملا

صفيه : أخبئك فى هذا القصر ؟

هبه : أجل ياسيدتي

صفيه : ولماذا ؟

هبه : لاني نظرت في أسطرلابي فعلمت أن يوم الثلاثاء هذا عصيب على واذا جاءالليل وقد علم بمكاني أحد غير أحب الناس الي فاني هالك.

صفيه : أنا أحب الناس اليك ؟ شكرا لك ياهبه الله . انك موضع ثقه أهل القصر جميعا . فلا غرو أن نراك فيمن نعز ونكرم

هبه : شكراً لك ياسيدتي . ولكن حبي اياك حب يعلم الله وحده نجواه . وهذا القلب وهذي العين : رأيتك فى حلب فكأنما رأيت الحور . فلما بقيت بها وجئت مضطراً فى ركاب السلطان الي مصر كدت أزل بنفسي صرفا

صفيه : وى ! لماذا ؟

هبه : (حائراً) لانك كنت يومئذ مريضة وقد كنت أرجو ...

صفيه : (تتنفس) شكرا لك

هبه : ولقد قاسيت من أجلك ما يقاسي المحب اليائس راضيا بذلك مستسلما

صفية : المحب اليأس !

هبة : أجل ياسيدتى ، حتي علمت انك وقعت في يد الكونت دارتوا فكدت اقضي حزناً لأنى أيقنت أن قد ضاعت بقية الأمل الذي كنت أحيا به في هذه الدنيا .

صفية : (تتنفس ذعراً) أي أمل تعنى أيها الطبيب ؟

هبة : آه . أنا . أنا .. لاشيء . أريد . أجل (يتكلم وهو ينظر اليها متفرسا على مهل ويطرق من آن لآن) أعنى أنك إذا

ظللت فى يد الكونت وجاء يوم الثلاثاء هـذا ولم أجدك (تبدو على صفيه علامة النفور من الرجل فى نظرتها فيسرع هو في حديثه وكأنما قد وجد حيلة تنطلي عليها فسرّ بها) وانت احب الناس الي ّ، حتى تجدي لي مكانا خفيا عن العيون فقدت أملي في البقاء .

جينفية : (كأنما سرّى عنها) ها . فهمت . انى سأجيبك الى طلبك (تنهض) لماذا تأخرت مريم ؟ مريم ! (تمشى خطوة) سأستعجلها وأبحث لك عن المكان اللائق .

هبة : شكراً لك ياسيدتى (يميل على يدها لتقبيلها فتسير صفيه ولا يدركها وهى لاتلاحظ ذلك . وتدخل القصر ويقف هبة الله ناظراً اليها نظرة العاشق الأبله اليائس) لقد منيت نفسى قبلة من يدها فأبت علىّ ذلك واتعسي وخيبة رجائي ! لماذا لاتكون هذه الفتاة لى عروساً ؟ أفأنا أدني منها محتداً ونسبا ؟ لماذا لايكون لى فى هذه الدولة فوق مابلغت ! أأنا أقل من قومها فضلا وحسبا ؟ (يسكت ويعود الى المقعد ويقعد) لابد منها ، إني أحبها . أريـدها لنفسي . هذه

أول المني وآخرها . (يسكت ويطرق ثم يقهقه) ماعجبت لشيء فى الدنيا عجبي لآمال نفسى . ولكن لابد من الظفر بها على كل حال وها نحن أولاء في سبيل النجاح . لقد دللتهم على المخاضة في آخر البحر فدخلوا المنصورة ولم يبق إلا أن أتم ماعزمت عليه . هذا دارتوا آت هنا. وهذا بيبرس . أحدهما قاتل أخاه فأخلص منه . ولكنى أفعل بالقاتل من ورائه ماأريد . ولكن مارى (لعنة الله عليها) لقد عرفتنى وستفضح أمرى اذا أنا توانيت (هنا تأتى مريم فينظر اليها هبة الله شزراً ويكلمها مغضباً) عجلى بالماء يامارى . لماذا غبت عنى ؟ لقد كاد يقتلنى الظمأ .

مريم : (فزعة) لم أعرف مكان الكوب ولا الماء حتى دلتني عليه مولاتى . إنا لم نهبط هذا القصر إلا طليعة اليوم

هبة : ها ! شكراً لها (ينظر في الماء بعد أخذه الكوب منها) أخشى أن يكون آسناً كمياه دمياط يامارى . ألا تذكرينها (يرمى بالماء علي الارض فترتعد فرائص مريم)

مريم : ماطرقت دمياط فى حياتى أبدا .

هبة : (يضحك ساخراً) لقد طرقتها لاول مرة على ماأظن منذ سبعة أشهرأنت وشيخ مسن يسكن فارسكور. أجل. أرسلك الى بعض الأمراء فى مهمة كنت فيها أبليس بعينه وتعرفين طعم الماء فيها حقاً (ينظر اليها نظرة الظافر المتفرس)

مريم : ويلاه

هبة : اليس الأمر كذلك ؟

مريم : كلا . إنى ماذهبت إلي دمياط بتة .

هبة : لاتكذبى . إنك ارسلت من قبل برنار صاحب النجع الى الامير فخر الدين صاحب هـذه الدار بذاتها . أتظنين أنى أجهل من أمرك شيئا ياماري؟ (يقهقه)

مريم : وماذا في ذلك ؟

هبة : اذا لم يكن فيه بأس عليك فلماذا ذعرت .؟ ألا يحـــدثك القلب بشيء ؟

مريم : أتظن أنهم يجزونني على مافعلت فيما مضى ؟

هبة : كيف لا ؟ إنهم لاينسون للمسيء إسـاءته . أنظري ماذا سببت لهم: ضياع مدينة بمالها ورجالها ، وقتـل خمسين من

أمرائها ، وأنت أحق أن تقتلى .

مريم : أتظنهم الآن يقتلوننى ؟

هبة : أفى ذلك شك ؟

مريم : ولـكن من ذا يخبرهم بجرمي وقد قتل برنار ؟

هبة : برنار قتل ؟

مريم : كذلك خبرت .

هبة : لست أظن ذلك . على أنه إن كان قتـل فان أخي فيليب حي يرزق

مريم : أهو أخوك ياسيدى ؟

هبة : أجل إننا توأمان . ولـكنه بقي على ملة قومه هو وبرنار . ودخلت أنا في الملة السمحة . ولـكن هذا لم يفرّق بيننا فقد كان يزورنى كثيراً ويفضى إليّ بما في نفسه وقد أخبرنى بجميع أمرك ياماري

مريم : (تتنفس حسرة) آه

هبة : لاتذعري . إنه سرلن يفارق شفتيّ

مريم : (تجثو) شكراً لك ياسيدى. إنك لذو مروءة . استر عليّ

وارحمنى إنى مسكينة يتيمة من أبوى

هبه : (يبتسم في نفسه) لاتخشي بأساً . إني لاأريد بك أذى ، إكراماً لأخي

مريم : (تقبل يده) شكراً لك ياسيدي شكراً. لقد ضاقت الحياة في وجهي فلا أنا أعرف لى أبا أفزع اليه ولا أخا ألقي حملى عليه . ان بقيت هنا فأنا في خطر من فضيحة أمري ، وإن هربت إلى ملك فرنسا انتقم منى على مخالفة أمره ليلة فارسكور . رباه ! ارحمني ! ارحمني ! إني أنيب اليك

هبه : روحي عنك لاتجزعي . سأكون لك منذ الآن أبا

مريم : شكراً لك ياسيدى . (تنهض)

هبه : ابقي بجوار مولاتك الأميرة صفيه لاتفارقيها . هذا آمن لك . ولكن حذار أن تذكرى صلتى بفيليب أخي أو تتحدثى عن تشابه وجوهنا لئلا يقتلونى خطأً

مريم : لك ذلك ياسيدي .

هبه : وإذا طلبت اليك عملا تستطيعينه فى الليل أوالنهار فأنجزيه على الفور

مريم : سمعا وطاعة يامولاي

هبة : هذا عقد بيني وبينك ، لأسبوع فقط ثم اردك بعد انقضاء الحرب الي ابيك وأمك

مريم : (باستغراب) أبى وأمى ؟ الى أب وأم ؟ (تجثو أمامه)

هبة : أجل . كذلك خبرني فيليب وهو يعرفهما . ولـكنه لم يشأ إخبارك بالامر لئلا تتركى خدمة عمه الشيخ برنار . أما وقد تركتها فأنا أعدك بردك إليهما

مريم : إذن فأنى لك جارية بل دوين الجارية . ردنى الى أبى وأمي إنى لأحس الآن دبيب الحياة فى قلبي

هبة : سأردك الي أبيك وأمك ، فاطمئنى ولـكن إياك أن تكاشفي بهذا الخبر إنسانا .

مريم : محال . محال . لن أكاشف به أحدا . إنى طوع أمرك

هبة : انهضى (تنهض مريم وهنـا تلوح صفية عند البـاب الذى بالدور الأسفل على الرحبة)

مريم : مولاتى آتية (يقدم لهـا الـكوب) هنيئـا لك يا سيدى (تأخذه وتخرج صاعدة الدرج)

هبة : شكرا لك .

صفية : (منادية وهى لدي باب الغرفة) هبة الله (تتقدم نحو المقعد)

هبة : سيدتي (ينهض)

صفية : لم أجد فى القصر غرفة اليق من هذه (تشير الي باب الغرفه التى جاءت منها) وكأن حظك اليوم موفور فان لها بابين مفتاحهما واحد

هبة : ما أسعد الحظ يا سيدتى . نعم الوفاء .

صفيه : وقد اعددتها لك على عجل واعددت لك ما تحتاج اليه من طعام ليلة وشرابها . اراني وفيت لك بنذرى ياهبة الله ؟

هبة : فوق ما منيت نفسي يامولاتى .

صفيه : إذن فادخلها الآن اذا شئت ولكن اياك ان يبدو من امرك شيء لئلا يتهموني بسوء . ثم اذا جاء الصباح فتحت لك الباب .

هبة : حذري أعظم من حذرك يامولاتى . انها حياة لا يعبث بها ياسيدتى فاطمئني . ولكنى ارى أن تعطينى المفتاح أقفل به الباب من باطنه حتى اذا جاء الصباح خرجت بنفسي دون أن

يراني اذ ذاك أحد

صفيه : أليس فى ذلك بأس ؟

هبة : اني طبيب القصر وكلهم يعرفون اني ادخل حيث تكون مولاتى بلا استئذان .

صفيه : صدقت ها هو ذا المفتاح . ادخل الآن . .

هبة : شكرا لسيدتى . (يميل يقبل يدها ثم يدخل الغرفة ويقفلها ثم تأتى مريم من القصر مذعورة)

مريم : سيدتى ! سيدتى (تنزل على الدرج وتنعطف)

صفيه : (تذهب اليها لتلاقيها) مريم ! ماذا بك ؟

مريم : أطللت الآن من النافذة فرأيت فرسان الفرنجة قد دخلوا الازقة والشوارع حتي بلغوا دار الفارس أقطاى وسيوفهم تلمع فى الفضاء وتهوى على الناس رجالا ونساء واطفالا لا تبقى ولا تذر * كأنما جاءوا ليقتلوا الشيوخ والأمهات ويحاربوا الرضع على الأكتاف .

---

* كتب التاريخ

صفيه : ويلاه . الم ترى جنودنا ؟ (هنا يسمع صوت نفير المصريين إعلانا بهجمة العدو)

مريم : لم اشهد جنديا واحدا ياسيدتي وكأنهم لم يعلموا بما وقع ولكنهم سيعلمون وشيكا . هذا هو النفير ياسيدتى . إنهم مشغولون فى غير هذا المكان . لقد خدعوا وربي ، غير اني رأيت جناحا من رجال القصر ترفرف على هذه البقعه .

صفيه : ويلاه ! اللهم انصره ونجه وارحمنا (طبول ونفير) لقد التحموا (صراخ من الخارج وعويل)

مريم : نحن فى مأمن ياسيدتى (جلبة مستمره ونفير وطبول) إن هذى الدار بعيدة عن الأذى . فقد رأيت الناس يلقون المقاعد والأسرة والأخشاب والاحجار فى الشوارع والازقة من نوافذ منازلهم حتى يسدوا الطرق على الصليبيين وأخذت خيولهم تتعثر وتسقط بمن عليها ورأيت بعض الشبان قد ركبوا النوافذ وأخذوا يطلقون قسيهم على الصليبيين وهم على تلك الحال فيوردونهم موارد الحتف العاجل *

---

* كتب التاريخ

صفيه : وأين أختى الآن ؟

مريم : لقد كانت نائمة في الشقة الغربيه من هذا القصر ،والكاتب سهيل راقدا كذلك ثم أفاقت الآن وأخذت تطل من النافذة .. علمت انها لم تنم ليلة الأمس الا فواقا

صفيه : خير لنا أن ندخل الدار . هلم يامريم (يهمان بالصعود على الدرج وفى أثناء ذلك يلوح برنار عند الباب متنكراً وهو محني الظهر وفى يده عكازة يتوكأ عليها)

برنار : يا أهل المروءة والخيرات! (تلتفت صفيه) هـل من مأوى لشريد! احسانكم ياأولى الاحسان ! انقذونى. ارحموا شيبتى وضعفي يرحمكم الله . سيدتى !

مريم : ويلاه ! . هل كان الباب مفتوحا ؟

صفيه : تقدير ربك يامريم . مسكين هذا السائل . (ترجع صوبه قليلا) تعال أيها الشيخ تعال . ادخل

برنار : شكراً لك ياسيدتى (يحاول الدخول على مهل كأنه لا يستطيع الحراك ومريم تنظر اليه فينظر اليها فتذعر)

مريم : من هذا ياسيدتى ؟ ألاتذكرين صوته ؟ (هنا يسمع النفير ودق الدفوف النحاسيه) .

صفية : كأنه صوت برنار . ولكنه قتل .

برنار : (يعثر بعتبة الباب) وا مصيبتاه ! جرحت رجلي (يقع) خذى بيدى ياابنتي .

صفية : مسكين هذا الرجل . لقد كاد يقتله الذعر (تدنو وهو يلتفت إلي الوراء فاذا قربت مدت يدها اليه فأمسك بها ونادى)

برنار : دارتوا ! دارتوا ! (فتصرخ صفية)

صفية : أواه . بيبرس ! بيبرس !

مريم : (تجري صارخة في القصر) النجدة !(ويأتى دارتوا ومعه رجال فينقضون عليها يريدون تكميمها) .

دارتوا : لقد ظفرت بك ياصفيه بعد طول الشقاء . من أجلك خالفت أخي وعاندت الهيكليين ودخلت المنصورة برجالى وحـدي

صفية : آه يانذل الرجال ! انقذونى ! انقـذونى (ثم يغشي عليها فتسقط) .

فخر : (من الداخل) لبيك (وينزل من القصر إلى رحبته عارى الجسم ليس على رأسه ولا صدره شيء * وإنما هو « متفوط » والسيف في يده ويجري بينهم و بينه قتال يسقط فيه رجلان من جنود دارتوا ويخرج هبة الله من الغرفة متلثما والخنجر فى يده فيطعن الأمير فخر الدين من الوراء) .

هبه : إلى جهنم يا بيبرس .

فخر : آه ياخائن . أ كذا يكون القتال !

برنار : مرحي لفيليب .

(يظل فخر الدين يحارب . ويده اليسري على خاصرته الجريحة ويجفلون أول الأمر من الضربة ثم يركع ولا يرمي السيف بل يحـــارب مسطوحا . وإذ يراه الجميع خاراً على الأرض يتركونه . يجرى هبـة الله إلى صفيه وهي لا تزال مغشيا عليها ويضع علي أنفهـا مشموما من جيبه فتسترخي أعصابها . وهنا يقول فخر الدين محتضراً :)

---

* راجع المقريزى

فخر : في ذمـــة الله سيفي إذ تفـارقه

كفي وفي صونه مصر وأهلوها

(يموت)

هبة : عاوني يابرنار .

دارتوا : الى أين ؟

هبة : إلي هذه الغرفه (مشيراً إلى حيث كان) حتى تنتهي الملحمة إني خدرتها بهذا العقار الذى صنعته لى فى فارسكور.

دارتوا : أحسنت . سيروا (يسير بها برنار وجندي وهبـــة الله ويخرجون بها الى الغرفة مكمة مغطاة الوجه وهنـا يدخل بواتيه ومعه رجلان)

بواتيه : أين أنت يادارتوا ؟(يكلمه وهو فى حالة غضب شديد)

دارتوا : هنا . أنظر . هذا فخر الدين كبير الجنـــد مجندلا * ألا تذكره ؟

بواتيه : ويحك . أذكره . ولـكنك قتلته وحده . ولم تدر أنك أهلـكت من رجالنا ألفين ! إنك لم تنتظر حتي يتم عبور

* كتب التاريخ

أخيك الملك وسبقت الهيكليين فأهنتهم بما فعلت . وكذلك استطاع بيبرس أن يعمل السيف في جندك جميعا حتي لم يبق منهم من يحدث عنهم إلا خمسه رجال فقط . وضرب اللعين محسن في ساقه الملك على غرة فقتل كل رجاله إلا مائه ،وأسرمنا حتى الآن الف وخمسمائه فارس وكندوبارون *

دارتوا : وامصيبتاه !

بواتيه : وكاد يضرب رأس الملك ذاته لولا أنه ركض لأنقاذك

دارتوا : ويحي ! ويحي ! وامصيبتاه! أين هوالآن؟

بواتيه : ذهب إلي القصر برجال ورجالى جوانفيل ظنا منه أنك هناك فلم يجدك فعادأدراجه فتلقاه بيبرس بجيوشه وقطعوا الطريق عليه وأخذوا جميع رجالك أسرى . ولولا أنه لبس بردة أحد هؤلاء الأعراب واختفى فى بعض الخرائب لكان اليوم فى الهالكين * (يعود برنار والجند ويقفل هبة الله الباب وراءهم ويبقي في الغرفة) .

---

* عن جوانفيل الفرنسى

دارتوا : وامصيبتاه ! ومصيبتاه ! (الطبل والصنوج تدق علانية إلى آخر الفصل).

بواتيه : هلم اليه . هلم . لقد خبرت انك جئت الي هذا المكان تنشد تلك الفتاة اللعينة . أهذا وقته يادارتوا ؟ هلم اجمع مابقي من الرجال لحماية الملك قبل أن يكشفوا مخبأه . ويل لنا إن اليوم علينا .

دارتوا : يالله ! كيف الاقى أخي !

بواتيه : أقتل البند قدارى إن استطعت . لايكفر عن ذنبك إلا هذا وإلا فأغمد السيف في فؤادك . إنني سأكون الي جانبك . فان قتلته وهبتك شرف قتله . هلم يارجال (يحاولون الخروج . وهنا يأتي بيبرس ومحسن في عدة القتال ومعهما جنود مسلحه وفي يد أحدهم علم ويكون من بينهم صبيح ومسعود عبد بيبرس).

بيبرس : (صارخا ومتقدما الي دارتوا والسيف في يده) ويحكم ياعبيد الشهوات وأنذال الرجال وحثالة بني الانسان !

محسن : (ينظر فيرى فخر الدين مجندلا) فخر الدين ! مجندلا !

بيبرس : ويلكم يا خونه (دارتوا وبواتيه يذعران ويشهران السيف باضطراب)

دارتوا : ليست شيمة الرجال قتل المطمئن . دونك سيفي (يقدم سيفه لبيبرس فيرفض أخذه)

بيبرس : ويحك ! وهذا الأمير . أما كان يتوضأ لربه فأذعرتم أمنه . أما والله لن أفلتكم اليوم منها . محسن . أعمل السيف (ينازل دارتوا ويتقاتلون جميعا قتالا شديداً والطبل والصنوج لاتنقطع فيقع بعض الجنود من الطرفين ويقع دارتوا قتيلا بضربة سيف من بيبرس . ومحسن يصرع برنار وبواتيه يفر أثناء القتال وتظهر شجرة الدر تحت قبة الدرج فوق الصدفة وهي في عدة القتال من خوذة ودرع وفى يدها خنجر مشهور وسهيل شاهرا سيفه استعداداً للطوارىء . ورافعا علما فوق رأسها فاذا انتهت الموقعة نادى بيبرس ومحسن (مرحي) والجنود من وراءهما والسيوف في أيديهم مواجهين شجرة الدر)

موحي ! مرحي ! (ويدخل أثر ذلك جماعة من الجنود

والأمراء المصريين في عدة القتال والطبول والرايات والاعلام وهم يهللون مرحي . مرحي !)

محسن : سلام على عصمة الدين . . وسيدة نساء المسلمين

شجرة : وعليكم سلام من الله ورحمة

بيبرس : لقد انتصرنا باذن الله

شجرة : مرحى للرجال – مرحى لأبطال المنصورة

(تهليل ودق طبول)

يسدل الستار على الفصل الثالث

الفصل الرابع

المنظر

يزاح الستار عن إيوان في دهلتر (فسطاط كبير له أبراج) السلطان طوزانشاه بفارسكور * له باب واسع في صدره المزرح ترى من ورائه سوار وشرع وشوان وبطس (سفن حربية) مصرية في النيل وبعد الباب صدفة واسعة ينزل منها إلى رحبة هذا القصر الخشبي العجيب . والإيوان مغطي الجدران بالاستار الديبقية البيضاء إيذانا بمقدم الصيف إذ نحن في أواخر ابريل سنة ١٢٥٠ ميلادية . وفي الإيوان فرش سلطانية وبسط طبرستانية وهنالك إلي يمين المتفرج دكة مفروشة مائلة الوضع الي نحو مقدم المرزح عليها كرسى عال مكفت بالذهب بنقوش عربية وعليه وسائد من الحرير بديعة الصنع وإلى يمين الدكة كرسي آخر أصغر من الاول إلا أنه كريم فهو مفروش بالوسائد مثله

* جيء بهذا السلطان على التحقيق بعد موقعة المنصورة بضعة أيام لا كما ورد خطأ في كثير من كتب التاريخ العربية من أنه كان حاضرا هذه الموقعة . وعلى هذا التأخر بنيت هذه الرواية ؟ المؤلف

ويرى إلى الجانب الايسر مقعد آخر من الأبنوس المكفت وكرسي مثله. وللايوان منفذان جانبيان أحدهما إلى اليمين وهذا يضرب إلى دار السلطان والآخر إلي اليسار ويضرب إلي حلقة المشورة

تدخل شجرة الدر من المنفذ الأيمن يتبعها سهيل وكأنهما تتم حديثا ثم تذهب إلى المقعد الأيسر وتجلس ويظل سهيل واقفا بجوار الكرسي الثانى .

سهيل : إنى لم أر الأمير بيبرس منذ أيام يا مولاتى . لعله ذهب لمفاوضة أسيرنا رى رديفرانس فى دار ابن لقمان بعد أن أخفق مسعي الأمير بلبان

شجرة : ولكنه أطال غيبته عنى . أتعلم أنت شيئا من أمر الأميرة صفية ومريم ؟

سهيل : كلا يا سيدتى .

شجرة : هل فتشتم شوانى الفرنجة ؟

سهيل : لقد نزل الامير بيبرس بنفسه يفتش عنها كل شق في تلك المراكب . ولكن لعلها فيما لم تصل اليه يدنا بعد . وكأن الأمير بيبرس قد خال ذلك فذهب إلي الملك

في الأمر

شجرة : لست أظن الملك يعرف عنهما شيئا . ويخيل إلي أن الامير الذى قضي فى دار فخر الدين إذ رآها في رحبتهما أسلمهما إلي بعض رجاله فعادوا بهما إلى حيث يخفونهما عن عيون الملك . لقد نقم الملك من أخيه إيداعها دار شيخ النجع . فلا غرو أن يخفى أخوه عنه الآن ذلك ولكن لماذا يأخذون مريم أيضا إلا أن تكون لصاحب نجع فارسكوريد في ذلك ؟ ألا ترى أن تستفسر منه ؟ إنه الآن أسيرنا . وقد يري في أن يدلنا عليها سبيلا لنجاته

سهيل : صدقت يا سيدتي ولكن صاحب النجع قضى بالامس . قتله ابن الطوري فيمن قتل من الاسري

شجرة : قتله ! ألم أرسل هبة الله الطبيب اليه ليكف يده عنه حتى أراه !

سهيل : بلى ولكنه قتل بأمر هبة الله نفسه يا مولاتي

شجرة : وى ! كيف ذلك ؟

سهيل : لا أدري ولكن صبيحاً خبرني أن برنار لفق له عن هبة الله هــذا خبراً عجيباً فسمعه هبة الله فأهدر دمه على الفور .

شجرة : وما يكون هذا الخبر يا ترى؟ ألم يخبرك به صبيح ؟

سهيل : لم يكن ثمة سبيل للكلام . فقد دعاه الملك اليه فلباه وتركني . قد يكون له بأمر اختفاء الأميرة علاقة . وإلا فلماذا آثر قتله على إطاعة أمر مولاتنا ؟ إني أستريب بهذا الطبيب يا مولاتي من زمن بعيد .

شجرة : ترى أين هبة الله الآن ؟

سهيل : إني رأيته الآن يتمشى مع مولاى السلطان على الشاطىء (يشير إلى البحر) فاذا رأيت أن أدعوه اليك بعــد عودة مولاى . . .

شجرة : أجل . أجل . اذهب على الفور (يهم سهيل بالذهاب والخروج) ولــكن قف لا فائدة من ذلك . إذا كان برنار يتهم هبــة الله فى شيء من أمرها فهل ترى ينفضه هو الينا ؟ خير لنا أن ننتظر حتى يعود صبيح من المنصورة .

سهيل : حسن يا مولاتي . ولكن لا بأس أن تستفسري منه عن سبب مخالفته أمرك . لعل في ذلك ما يفيد حين نرى صبيحا . أبلغ بزعانف الناس أن . . . . ؟

شجرة : (بعد صمت) لا بأس . إذهب في طلبه

سهيل : سمعا يا مولاتي (يخرج من الباب الاكبر)

(يدخل الأمير بيبرس من المنفذ الأيسر تائه الفكر مشرداً ، كما يفعل من يمشون في نومهم . تكون عيناه صوب منفذ قصر السلطان وهو غارق في تأمله ويتقدم نحوه وشجرة الدر ناظرة اليه باستغراب . فاذا حادثته تنبه كأنه أفاق فيلتفت إلى جهة الصوت وتناديه شجرة الدر بصوت غير عال كي لا ينزعج)

شجرة : مرحبا بركن الدين .

بيبرس : (يتنبه ويتلفت) من ذا يناديني ؟

شجرة : (على المقعد) أنا يا ركن الدين .

بيبرس : (يتقدم منها بسرعة ويجثو على ركبتيه) معذرة يا أختاه معذرة . لا يسؤك طروقي بلا استئذان . لقد والله

أردت أن أخرج الى الشاطيء من باب حلقة الامراء . .
فأخطأته وجئت إليك . . . فأن كنت . .

شجرة : (بصوت هادىء) يا مرحبا بك يار كن الدين

بيبرس : لمثل هذا الصوت فزعت نفسى . إلي مثل هـذا الحنان
تطلع قلبي . إلى مثل هذه النظرة المشفقة ظمئت روحي .
املـكى عنى أساى . املـكى عني دمعة عينى (يضع وجهه
بين راحتيه) إني أكاد أجن يا أختاه (تخنقه العبرات)

شجرة : روّح عنك يا ركن الدين أتيأس من رحمة الله ؟

بيبرس : آه يا مولاتى ! لقد بحثت عن صفية في كل مكان لـكنى لم
أوفق إلى خبر عنها . سألت البوادي والقفار وفتشت
الخرائب والديار ، فلم تحر جوابا . ولقد طالما تمثلتهـا
في سفرتي تستصرخ فأصرخ من أعماق قلبي . لبيك !
لبيك ! ثم أنتبه فلا يجيبنى الا الصدي حتى تغشانى غاشية
جنون فأهيم على وجهي في البراري وأخوض رقراق
البردى المطمئن ثم أصرخ :هأنذا . لبيك ! إلى أن أذعرت
طير قلبى المسكين بصراخي ، وترينى الآن كالطفـل لا

يخفف حزني إلا دمعة أذرفها أو أم آوى اليها . إني أكاد أجن . أجن . أواه

شجرة : بيبرس . بيبرس . ترفق بنفسك . أكـذا عزيمة الرجال ؟ أهذا فتى النجع ؟ أهذا فارس المنصورة ؟ لقد والله حسبت أني أجد لنفسي في صبرك عزاء فأذا أنت أحوج منى الى العزاء . لعلها ذهبت الي دمياط وقد عزمت أن أرسل الى الملكة رسالة . لماذا تزل بنفسك يابيبرس ؟

بيبرس : لقد ذهبت الى دمياط

شجرة : (تؤخذ دهشة) وي !

بيبرس : وقابلت الملكة نفسها وسألتها عنها . ولـكنها أقسمت أنها لا تدرى من أمرها شيئا منذ ارسلتها اليك .

شجرة : ما هذا الجنون يا بيبرس . اتذهب بنفسك الي عرين الاسد الذى جندلت اشباله ؟ كيف تخاطر بنفسك كل هـذه المخاطره يا ركن الدين ؟ اننا لا نزال فى حاجة اليك .

بيبرس : كلا يا سيدتي. لم يعد لـكم بي حاجة . لقد كتب الله

لنا السلامة فقهرنا عدونا وأسرنا ملكهم وأمراءهم وأخذنا كل جنودهم ومراكبهم وأدواتهم وعدتهم وقضي الأمر . فأذا أنا مت بعد ذلك فليس في ذلك كبير بأس إلا أن تكون صفية في الأحياء

شجرة : إنها كذلك يا ركن الدين . أترى الله يفجعنا فيها . كيف يضيع الله أجر المحسنين ؟ ولكن قل لى كيف دخلت على الملكة ؟

بيبرس : دخلت عليها كأني رسول من قبل بيبرس . وكنت أعددت معي رسالة . ولقد وجدتها مريضة هزيلة وفي عينيها أثر البكاء والنحيب . لم تر أن يحادثني ناظر خاصتها بل نهضت من فراشها تستنشق خبراً عن زوجها . وهي أول مرة نهضت من الفراش بعد أن وضعت ولدها الذي سمته بالحزين * وقد قدمته إلي مستصرخة بك وبعواليك أن تردي اليها زوجها . فوعدتها ان أكون واسطة خير بينك وبينها .

---

* عن جوانفيل

شجرة : آه يا بيبرس . لقد احسنت . اقسم لقـــد تمزق قلبي.
لحديثها . ولـكن تري طوران يرضى بذلك ؟

بيبرس : (يستفيق شيئاً فشيئاً) الرأي شورى ياسـيدتي ، وإذ
كانت الملـكة قد رضيت أن تدفع فدية عن زوجها
فقـد عدت إلي المنصورة على الفور واتفقت مع الأمراء
على صيغه اطلاق سراح الملك . وأما أنت فلا أظنك تأبين
اجابة سؤل الملـكة . ولا أظن مولانا السلطان يأبي ذلك.

شجرة : انى سأحادثه فى الامر حين يرجع الى القصر . ولـكن
هل سألت الملك لويس عن صفية ؟

بيبرس : أجل . ولـكنه لا يعرف من أمرها بعد يوم النجـع
شيئاً ولا أخوه بواتيه ولا أميره الذي أسره محسن مع
الملك في ميت أبي عبد الله لانه كان أقرب أصـدقاء
دارتوا اليه ولـكن الملك وعدني أن يبحث عنها يوم
يعود الى دمياط وهذا هو الامل الباقى . والآن فلتأذن
لى عصمة الدين أن أنصرف لعلي أفي آخر حق بلادى
علىّ .

شجرة : هذا أنت يا بيبرس . هذا ركن الدين . هـــذا عين أبطال مصر .

بيبرس : لقد عاد إليّ الآن شيء من الطمأنينة بلقائك كأنما كنت لنفسى كعبة الرجاء التي تفرج فيها أزمات الأمور. على أنك اذ رأيتني قد انتفضت كالورقاء فانما أضم الآن تحت جناحي جرحا راش سهمه القدر ثم أخفاه في طيات الخوافى . السلام علي مولاتى ورحمة الله .

شجرة : فى ذمة الله يا بيبرس (يخرج بيبرس من المنفذ الايسر وتهم شجرة الدر بالخروج من المنفذ الايمن ثم تسترسل فى كلامها وهي خارجة) يا لله ! كيف يقلم الوجد مخلب الاسد . اللهم لا تفرق بينهما يا من يجزى المحسنين بما عملوا .

(يدخل السلطان طوران شاه من الباب الكبير لابسا جبة سوداء مزركشة بالذهب على قتبها وعاتقها ولهـا أزرار كبيرة دائرة حول السجف وهي موشحة بفرو السنجاب وعلي رأسه عمامة بيضاء مفرعة ذات أقماع مخيطة بأعلاها تقليداً

لعمامة صلاح الدين وتحت جبته قفطان من الحرير الاخضر الاسكندرى المجوخ عليه منطقة من النهب . . . وظاهر طوران شاه يدل على الرعونة وأنه سكير فهو منتفخ الاوداج جاحظ العينين قليلا . اذا دخل وقف يتأمل ثم سار الى حيث كانت شجرة الدر ثم وقف وأخذ يفكر ثم عاد الى السير ذهابا مرة وجيئة أخري)

طوران: تخفيها عني وتهزأ بي ! تؤثر عبدا من عبيدى على .
على انا ــ سلطان مصر والشام وابن الملوك العظام . ام انها تجهل قدرى ؟

شجرة : (تدخل) من هذه التى تجهل قدرك يا بني ؟

طوران: (على حدة) ويلها ! ! كانت تسمع ؟ (وبصوت مسموع) هي انت يا امرأة أبي الكريم .

شجرة : (تشده) ما عودتنى مثل هذا النداء يا بني .أم استكثرت علي لقب الامومه ؟.

طوران: ليس للانسان فى دنياه الا أم واحدة وقد أفقدتها منــذ زمن طويل .

شجرة : فمن ذكرك اليوم بها ؟ ما أشد وفاء الأبناء!

طوران: ويحك ماذا تعنين ؟

شجرة : أسبابا واعتداء

طوران: خبريني أين صفية ؟

شجرة : لقد طالما خبرتك أني لا أعلم عنها شيئا (يقف طوران أثناء ذلك ينظر اليها مهتاجا يضع يده مرة على خاصرته وأخرى على صدره) منذ موقعة المنصورة . واني لا أدعو الله في صلاتي الا أن يوفق من أقمتهم للبحث عنها للعثور عليها ويجمعني بها . فما بالك اليوم تسألني عنها خبرا ؟

طوران: انك تخفينها عني .

شجرة : أخفيها عنك ؟ أتراني كنت اخاتل الله في صلاتي ؟

طوران: انما كنت تخاتلينني انا (يتمشى)

شجرة : ما عهدي بك كذلك يا بني . لا تخفيها عنك الا احدى امرأتين : زوجة لك أو عاشقة تغار عليك .وما أنا كذلك وما ينبغي لي . او ناقمة تريد الثأر منك ، وليس بيني

و بينك عداء .

طوران: بل انما انت الثانية ايتها المراة .

شجرة : وى ! لماذا ؟ (هنا يبدو سهيل علي الصدفة واذ يسمع هذا اللجاج يتراجع ولكنه لا يغيب)

طوران: لا ادري (يتمشي ثم يقف ينظر اليها)

شجرة : كيف اريد بك سوءا يا بنى وانا التي وليتك الملك بعد ابيك بلا وصاية ؟

طوران: اذن فقد خنت ابي اذ زورت خاتمه علي الناس بولاية العهد لى .

شجرة : قد اكون خنته يا بني ، ولكني لم اخنك انت ولا خنت ربي .

طوران: من يخون ابي يخونني (يتمشي ثم يقف ينظر اليها)

شجرة : اذن فمعذرة اليك . ولكني انما فعلت ذلك حسن ظن بالله ، وامانة لك

طوران: الم تعدى بها خادمك بيبرس .

شجرة : بلى (هنا يبدو سهيل ثم يتراجع)

طوران: اتؤثرينه على ؟

شجرة : كيف اوثر خادم السلطان على السلطـان نفسه ؟ ولـكن سبق الوعـد بها من ابيك لأميره وهو فى حلب قبل ان يجيء الي مصر بعام ، وجددت له الوعد قبل ان تجيء انت بأشهر . ولقـد هممت ان ابر له بوعد ابيك ووعدي واجزيه عن المعروف فيما فعل فأبت عليه همتـه العالية الا ان يرجيء الأمر حتى تنتهي الحرب . وها نحن أولاء قد فقدناها ولا ندرى أفى الأموات هى ام فى الاحياء ؟ فلماذا تحادثني اليوم فى شأنها ؟ بل لعمرى لئن كانت في يديك ثم طلبها بيبرس اليك لـكان حقا عليك ان تجود بها عليه اعترافا بجميله على بيتك . انه هو الذى حمي بيت بني ايوب ذلة الاسر والهوان .

طوران: ويحك يا شقيه (يبدو سهيل ثم يتراجع)

شجرة : آه يا طوران لقد كان بيبرس وصحبه ابناء ملوك مثلك اتق الله يا طوران . . إلا تخشى ان يصيبـك ما اصابهم فتقتل او تباع كما بيعو الأبيك ؟ ثم لا تجد سيداً كسيدهم

لقد كان أوشك أن يصيبكم من الفرنجة ما أصابهم من المغول
لولا همة بيبرس وصحبه

طوران : فليمت يافاجرة (يقبض على ذراعها) أبمثل هذا تجيبين؟
(هنا يبدو ويقف ينظر ثم لا يتكلم)

شجرة : دعني أيها السلطان وإلا ندمت

طوران : (يتركها) أين أموال أبي ؟

شجرة : إنك تعلم أنى أودعتها بيت مال المسلمين

طوران : لم أجد فى بيت المال إلا قليلا . خبريني أين المال ؟

شجرة : إن كنت لا تجد إلا قليلا فقد أنفق على الجند . والعشور
لم تجب حتى يومنا هـذا لاشتغال الناس بالحروب وليس
عنـدى مـن مال أبيك إلا قليل لا أزال أنفق منه في
طعامك وشرابك . فأن شئت أن تتولاه أقلتنى مشكوراً
ثم أذنت لى فى مغادرة قصرك مأجوراً . لم يعـد لي فى
جوارك مقام.

طوران : لن يكون ذلك حتى تنزلي عن حقائب الدر الأسود والياقوت
التى أهداها إليك أبي .

شجرة : إن كان أبوك قد أهداها إلى فهي ملكى بشرع الله ليس لأحد عليها من سبيل . على أني قد رصعت بها كسوة المحمل الذى نذرت أن أجعله هو دجا للأمين الذي يسافر بالحجيج إلى مكة المكرمة وقبر رسول الله هذا العام . ووهبت ما بقى منها لمقصورة النبي عليه السلام اغتباطا بنجاة مصر وخفوق راية الأسلام . وهي الآن فى قلعة الجبل فان شئت إلا أن تأخذ مال الله فأنت وشأنك

طوران : أهى فى مقصورتك ؟

شجرة : كلا بل في مقصورة أبيك . والآن إذ جئت بى إلى فارسكور فأذن لي أن أرحل عن دهليزك هذا لا آخذ معى إلا ثيابى التى جئت بها . ولن أعدم قوت يومي بما تكسب يدى

طوران : أنتركك مهرعين إلى ندمان خلوتك ؟ اذهبي الى غرفتك ولا تبرحيها الا باذني

سهيل : (يدخل) الأمراء بالباب يلتمسون المثول بين يديك يا مولاي

طوران : (يلتفت مذعورا) ويحك! من الذي أذن لك بالدخول ؟

سهيل : تلك عادتى يامولاى .

شجرة : هذا كاتب يدي أيها السلطان .

طوران : (لسهيل) قبح الله صورتك . اذهب . قف . على
بابن الطورى

سهيل : لم يجيء معهم من المنصورة يامولاى

طوران : وي ! لماذا تأخر ؟

سهيل : رأى الأمير محسن أن يستبقيه بالمنصوره فى غيبته

طوران : (يصك أنيابه) على بهم . (وتحاول شجرة الدر أن
تذهب من الباب الأيسر فيستوقفها) قفي . أين تذهبين ؟

شجرة : إلى رسول الله أشكوك اليه

طوران : إلى حجرتك أيتها المرأة . لا يدخل عليك أحد إلا بأذنى
ولا يكن لك كاتب ولا بريد . أفهمت ؟

شجرة : (تنظر اليه منتظرة ساكنة ثم تتكلم) سأذهب كما تشاء
وسأكون عند أمرك ، ولكن اعلم أيها السلطان أنك
فقدت نصيرك في هذه الحياة .

(تخرج من حيث جاءت)

طوران : أتراهم أوجسوا المخبوء؟ . مالابن الطوري قد خالفه أمري؟ أجل . انهم زعماء الجند والناس في مصر (هنا يبدو سهيل) عبادالقوة .سأريهم قوتى فلايستعجلون.

سهيل : حضر الامراء يامولاي

(يدخل الامراء يتقدمهم محسن ويتلوه أقطاى يتبعهما بيبرس وبعض أمراء أخر ويظل سهيل عند الباب)

محسن : سلام علي الملك المعظم طوران شاه سلطان مصر والشام وحامي حمي الاسلام

طوران : على أبطال مصر السلام (يجلس على المقعد العالى وهو غضب)ماوراء كم؟

محسن : ماوراءنا الا الخير أيها السلطان . ولكنا جئناك نستفتيك فى أمر من أمورنا ونستنير برأيك الثاقب .

طوران : ان كان أمرا من أمور الدولة فليس لأحد منكم أن يستفتي وإنما لي الرأى وما عليكم الا البلاغ . فما هو هذا الأمر ؟

محسن : (يلتفت دهشا) أمر ريدافرنس أسيرنا ....

طوران : ماخطبه ؟

محسن : لقد بقي من جنده فى دمياط عديدا عتصموا وراء أسوارها المنيعة واستعدوا لجيوشنا استعداداً كبيرا

طوران : وهل يعز عليكم فتحها ؟

محسن : لن تعزّ المعاقل على فارس مصرى فى يمينه حسام وفى قلبه ايمان .وإنما نخشى أن يبطىء الفتح علينا . وقد زرنا دار ابن لقمان بالا مس حيث أودعنا ملك فرنسا وأخاه وباروناته أجمعين فعرض الملك علينا أن يخلي دمياط لنا ويدفع لنا عن نفسه ومن بقي من قومه دية ونطلق سراحه وسراحهم ونزل الألوف من رؤوس القتلي من قومه الذين قلدنا بجماجمهم أسوار المنصورة ونحفظ له أقواته التى بدمياط حتى يرسل في طلبها * قد رأينا الأمر أجدى علينا وأحفظ لرجالنا فجئنا نطلب إلى سدتك الاذن بامضائه

طوران : لقد كان يجدر بكم أن تتريثوا حتي تبلغوا الامر الىّ . إنى أنا سلطان مصر وحدي لا أنتم . وسواء كان فيما عرض

---

* عن جوانفيل

نفع أو غير نفع فانى لا آذن بامضائه .

أقطاي : يشاء مولاى أن يقول الساعة هذا المقال بعد أن اتفقنا معه بالنيابة عن البحرية أجمعين على ما يجب أن يكون لنا من الأمر في تدبير الشؤون . وقد كنت عالمتنا بأنك لا تأبي على الملك أن يفتدى نفسه ، فلما عرض علينا الدية تشاورنا في أمرها وارتضيناها فيما بيننا ، ثم جئنا نلقي عليك جملتها لتعلم بما يجب لك العلم به

طوران : ما كان من حقكم أن تتشاوروا في أمر من أمور دولتي ولو سبق مني اقراره حتى أنظر فيه . فان شئتم أن تسلبوني حقي الذى وهبه الله لي فانما أنتم باغون . وإن شئتم أن تكونوا مخلصين لي عاملين على مكانتكم مني لم تزيدوا على ابلاغي الامر ولي فيه شأني ، قبلت أم رفضت

بيبرس : أيها السلطان انا لم نخرج بالامر عن حد المباحثة وتقرير شرائط الاتفاق بيننا وبين عدو قديم ، لم تكن لك يد في أمره ولا هزيمته . ولقد كنا في حل من امضائه عنك عملا بما اتفقنا عليه من قبل ، ولكنا أردنا أن نبلغك

الأمر رعياً لكرامة ذى السلطان ، ولنشهد الله أننا وفينا لبيتك الكريم ولبلادنا ولأبيك عليه الرحمة والرضوان

الجميع : رحم الله الملك الصالح

بيبرس : فأما أننا مخلصون لك فهذامالا شك فيه ، اذانك سلطان مصر الذى أقمناه باختيارنا لجمع أمرنا،ولعنةالله على الخائنين.

الجميع : لعنة الله على الخائنين

بيبرس : وأماأننا نجهل مكاننا منك فمغالطة ساقك اليها ماوقر فى نفسك من أننا،نحن مماليك أبيك الجليل،نطمع فى تراثك فلم تزل تغض منا وتصغر من شأننا .

الجميع : رحم الله الملك الصالح

بيبرس : لقد كان لنا أن نجلس فى حضرة أبيك جلسة الولد البار من أبيه . فأما أنت فأبقيتنا على الاقدام في هذه الدار التى يجلس فيها الغلمان والندامى ، وفى مثلها قضي أمرنا بتوليتك سلطاناعلينا بلاعهدولا كتاب(يضطرب طوران)

طوران : اجلسوا بالله ايها الامراء ولا تذكروا الا الخـــير . انى نسيت (يجلس محسن واقطاى وبعض الامراء)

بيبرس : بل تناسيت لتزري بنا وتحط من كرامتنا ونحن امراء الدولة وكبار جندها وأساطين دولة الاسلام . وكان فرضا عليك الا تفرط في كرامة هذه المنزلة حتى لا يراها خلفك من السلاطين هنة بين الهنات .

طوران : معاذ الله يابيبرس! معاذ الله!

بيبرس : لم تزل منـــذ جئنا بك من كيفا تستريب كل أمر من امورنا . لماذا ؟ ألأنا حفظنا لك الملك أن يدعيه أربابه من أعمامك الذين غلبهم أبوك عليه ؟وما برحت تستصغر كل عمل من أعمالنا . لماذا ؟ ألأنا استطعنا أن نـبرهن للعالم أجمع أن فى مصر رجالا ، وأن امرأة مصرية خير من رجال كثيرين ؟

الجميع : بوركت . بوركت فضلى النساء

طوران : وى ! وى ! اكذلك تخاطب مولاك يا ركن الدين ؟

بيبرس : لقد كان للناس أن يقوّموا عمر بحـد السيف ، فبأى

حد نقوّمك أنت ؟

طوران : لو تركتمونى وشأني لصنعت مايستوجبه الدين .

بيبرس : استمع لى ياطوران : اذا شئت أن تعيش بيننا سلطاناً علينا فليس لك إلا الشورى والرأي للجماعة .

طوران : لقد عوّلت على ذلك منذ حين .

بيبرس : هكذا علمنا فما ردك اليوم عنه ؟ وما دعاك إلى أن تبيتنا وتتآمر علينا وتعمل على قتلنا ؟

طوران : (دهشاً مذعوراً) أنا أبيتكم وأعمل على قتلكم !

بيبرس : كفى أيها السلطان . إنك تزعم أن مصر اليوم كعهدها بالأمس إذ كان أهلها أنعاماً يساقون . كلا ياطوران ! لقد عشت فى ديار بكر بعيداً عن هذه الدنيا فلم تدر أنهم اليوم أمة أخرى. لقد عرفوا اليوم أن لهم في هذى الحياة الدنيا نصيباً فوق نصيبكم منها لأنكم بها وهي ليست بكم . إنهم الأعلون وأنتم الأدنون . لذلك أراك خدعت في الاعتماد على رجال الحلقة . بيد أنهم رجالى ورجال صحبي . فصن فؤادك عن التفكير في قتلنا ولا تضن نفسك بالاحتيال .

فانى إن أمت غيلة أو يمت محسن صبرا ، أو أقطاى أو قطز
أو بلبان أو تنكز ، قام غيرهم يطالبونك بدمائهم ،وإذاأنا
فصلت الآن عنقك بسيفي هـذا جزاء جنايتك علينا ولغ
الناس فى دمك وكان ولى عهدك أول المغتبطين . انظر .
هـذا أميرك ابن الطورى الذي جئت به من كيفاوالذي
عليه تعتمد وبه تستعين قد عالننا بأمرك . فارشـد أيها
الساطانولا تكن من الجاهلين .

طوران : معذرة يا بيبرس . معذرة أيها الأمراء . لقـد خبروني
أنـكم أردتم بى سوءاً فصدقت والـكريم يخدع . على أن
لـكل امرىء من دهره ما تعود . وقد اعتدت فى كيفا
مالم أجده هنا . فـكبر الامرعلي نفسى ، ووجدت للوشاية
سبيلا الي قلبي . أما وأنتم لا يرضيكم إلا هذه الخطة على
أن نعيش عليها بعد اليوم إخواناً في الله ، فعهد الله بينى
وبينـكم عليها ، قسما تلزمنى عليه إن حنثت لعنة المنتقم
الجبار

بيبرس : شكراً للسلطان .ولـكننا لا نرضي بهذا العهدحتي تسترضي

مولاتنا شجرة الدر على ما لقيت منك من صنوف الأهانة
قبل مقدمنا .

طوران : اتقوا الله أيها الأمراء ! ماذا جرى ؟ إن هـذا افتراء

بيبرس : إنه لصدق أيها الساطان (لسهيل) سهيل

سهيل : مولاى .

بيبرس : استمح مولاتنا في التجلي علينا .

طوران : لن يكون هذا . كيف تبدو امرأة السلطان عليكم ؟

محسن : هو ن عليك يا مولاى إننا عبيدها المخلصون . وما هـذه بأول مرة نستأذنها . فقد كان لنا ذلك أيام أبيك عليـه الرحمة والرضوان

بيبرس : والآن فاعلم أيها السلطـان اننا جئنا بملك الفرنسيس من المنصورة نردعه، واتفقنا معه أن تـكون الدية خمسمائة الف دينار نصفها برهن أخيه بواتيـه حتى يصـل الي دمياط والنصف الآخر بوعد منه . فاقبله واذا دخل عليك فأذن له بالجلوس . هذا أليق بكرامتنا . واذا ذكرت الدية فانقص منها . نحن قوم لايهمنا الا الثناء . ثم ودعه وداع

الملوك (يلتفت) أقطاى . مر للملك بالقدوم علينا (ينهض أقطاى ويقف بباب الردهة فوق الممشى ويشير بيده إشارة من يستدعي .)

أقطاى : علينا برى ديفرانس

صبيح : (من الخارج) سمعا يامولاي . (يعود أقطاي) (ويأتي سهيل من القصر يتقدم شجرة الدر)

سهيل : (معلنا) مولاتي شجرة الدر . (يقف الجميع ما عدا السلطان)

شجرة : سلام على ابطال المنصورة .

محسن : وعلي حامية مصر السلام . (تجلس على الكرسى الذى الي يمين عرش الملك)

شجرة : لم أظفر بعد فقد مولاى الملك الصالح بشىء من طمأنينة النفس الا اليوم ايها الامراء الكرام إذ اجتمعتم بولدى السلطان المعظم طوران شاه (هنا يتنفس السلطان تنفس الفرح) بعد طول نواه ، وحميتم مصر أذى عدوها ثم استقدمتم زعيمهم في رحابه أسيراً. أفلا نشكر الله ؟

أقطاى : ألف حمد لله على نعمته يامولاتى وألف شكر لك . لقد
كان النصر كله على يديك . فأنت أنت التي دبرت أمر الدولة
فى غيبته حتي لا يشغل الامراء الا بمدافعة القوم ، كما
صنعت في غيبة أبيه ومرضه . ولعمرى لئن كان لهم في
نصرة الحق ثواب عند الله ، لثوابك أرجح وأعظم
(للسلطان) أليس كذلك يامولاى ؟

طوران : (سكوت) بلى

بيبرس : لو أخلصت النية أيها السلطان لوقفت اجلالا لمن دعتك
ولدها بعد أن أسأت اليها . ولعرفت لها اقصارها عن
الشكوى ، واعتذرت اليها مما فرط منك .

طوران : (ينهض) معذرة يا أماه .

شجرة : عفا الله عنك ياولدي . ان هي الا مغاضبة مما يحدث بين
الوالدة وابنها . شكرا لكم أيها الامراء . ألهذا دعوتموني ؟

حسن : أردنا أن نطمئن عليك ياسيدتي ونخبرك أنا لا نرضى أن
يبدل لك حال بعد مولانا ، وأنا نفديك من كل شر
بنفوسنا .

شجرة : شكرا لكم . اني بخير مادمتم . انظروا لانفسكم
(تنهض) والآن أيها الامراء اذ جئتم علك الفرنسيس فعسى
أن ينصرف شاكرا : لاتجعلوا الحرب مذهبة للمروءة . فانا
قوم لانبتغي الا وجه الله . ولقد أعددت له ولقومه خلعا
يأمر بها ولدي السلطان

أقطاى : وأين هي الآن يامولاتي ؟

شجرة : في حراسة بعض المماليك

بيبرس : أحسنت ياعصمة الدين

شجرة : والآن أيها الامراء اذ انتهت الحرب بعد العداء ، وانقذ
الله مصر من الذلة والهوان ، وأرانى بررت بقسمي لله
ووعدى لمن قضي ، فاشهدوا أيها الأمراء .. اشهدوا
اني وفيت .

الجميع : نشهد على ذلك

شجرة : ولتشهد مصر أيها الأمراء أنكم حماتها . لن تضام مادام
رجالها على ماأنتم عليه من الأخلاص لله في العمل وابتغاء
وجهه في السر والعلانية. لقد كان فى تناصركم وتآزركم

آية : أنَّ الدولة برجالها . طلح السلطان أم صلح ، ولئن كنتم على غير ماعرفت لكنت اليوم أتلمسكم فلا أجدكم الا بين جدث أو مأسرة . فاذا عيني حاسرة ، واذا شفتي كاسفة . أما الآن فالعين من بشرها دامعة ، والسن من فرحها مشرقة . سلام عليكم ورحمة الله (تخرج)

الجميع : وعلى عصمة الدين السلام (يردون ماعدا السلطان)

بيبرس : (للسلطان) لماذا لم ترد السلام أيها السلطان

طوران : وي ! ماهذه المذلة ! أما كفاكم مامضي ! إني لاأطيق هذا (ينهض) أكذا تذل الملوك ؟ ويحكم ! اذهبوا عني (يتحرك عن العرش) لن أنتظر حتى يأتي من يدشم في طلبه (يهم بالذهاب)

بيبرس : سيوفكم يارجال (يجردون السيوف ويلزمون الابواب) إنك لاتملك الآن شيئاً ، بقاؤك وذهابك ملك الامة ووقف على منفعتها . فأذا انت لم تقف حتى تلاقي من لا يدس ملاقاته باسمها ، فكأنما نزلت عن العرش ولن تعدم مصر من رجالها ملكا

طوران : لاأريد سلطنتكم . دعونى أرجع الى كيفا *

صبيح : (يطل) جاء رى دوفرانس

بيبرس : خذوا هذا الامير (مشيرا الى السلطان) إلي غرفة الحلقة حتى حين ...(لسهيل) سهيل !

سهيل : مولاى

بيبرس : اصعد العرش (يشير بيده إلى العرش)

طوران : (ينظر الي العرش والى الجميع) سهيل !

بيبرس : (لطوران) اصعد عرشك ولا تقم . وأرنى جلال بنى أيوب. لقد كانوا قوما كابرين (يصعد طوران العرش) (يدخل ملك فرنسا وعدة من البارونات والملك فى ملابس غير ملابسه الاولى لانها أخذت منه وأرسلت هدايا الي جند الشام * يتبعه صبيح ومسعود)

الملك : السلام على الملك المعظم طور انشاه ، سلطان مصر والشام وحامي حمي الاسلام

طوران : (بتلطف)وعليك السلام ياملك فرنسا العظيم

* كتب التاريخ

الملك : (يجلس على الكرسي الذي كانت عليه شجرة الدر ويظل الآخرون واقفين) شكراً للسلطان

طوران : إنك آذنتنا بالفراق فلا تذكر ماأسأنا به إليك إنك ان تغلب فى بلاد نا ، ففرانسا باقية . أما نحن فان نقهر هنا ضاعت بلادنا فأن نكن قد أرهقناك فى أسرك فالعذر واضح

الملك : أيها الملك العظيم الشان هنيئاً لك امراؤك . لو كان في الفرنجه مثلهم لعاموا أوربا مكارم الاخلاق و كرائم الشيم. والملك منا أيها السلطان إن كان سعيداً وفقه الله الي وزراء راشدين وأمراء باسلين واذ كان لك من هؤلاء عديد كالدر في لبة الحسناء فهنيئاً لك اسمك الخالد وسلطنتك العظيمة. واذاوجب علىّ أن أذكر للمحسن إحسانه فأنى أخص به الأمير بيبرس البندقدارى والأمير العظيم محسن الذى أسرني بسيفه واحسانه معا، والفارس المعلم أقطاى وهذا الكاتب الامين (مشيراً الى سهيل) وذلك الحارس البار الكريم (مشيراً

الي صبيح وصبيح يسلم بكلتا يديه) * واخوانهم أعلام البحرية الذين حموا رقابنا أن يضربها الواجدون علينا .

الجميع : شكراً للملك

الملك : لقد أروني اني خدعت فيما بلغت عن القوم . ولو بصرني ربي بأمركم من قبل ووفقني الى سر دينكم ما ألقيت بقومي في مقاتلتكم . ولكني زعمت اني ازدلف الي الرب ولولا حسن نيتي لكنت اليوم في الهالكين

طوران : نحمد الله على ذلك ، لا نريد فوق ذلك شيئا إلا أن تعدنا أيها الملك ألا تغامر بقومك في قتالنا بعد اليوم

الملك : لك العهد مني أيها السلطان

طوران : شكراً للملك . والآن ماقدر الدية؟

الملك : ألف ألف بيزانطي أيها السلطان . هكذا اتفقنا .

طوران : إنك كبير النفس أيها الملك . كيف رضيت بهذا القدر؟

الملك : رضيت به فداء لقومي

طوران : اذن فاني انزل لك عن مائتي الف منها إعجابا بعلو نفسك

* كان صبيح حارس سجن لويس وذكره ابن مطروح في تصيدته

أيها الملك العظيم

الملك : شكراً للسلطان

طوران : ألا ينزل لي الملك عن حصني الاسبطاريين والهيكليين بالشام ؟

الملك : لا أملك ذلك أيها السلطان . إني أملك دمياط وقد نزلت لك عنها

طوران : وكيف تدفعون الدية ؟

الملك : نصفها يوم وصولي إلى دمياط وسأترك أخي هذا (مشيراً إلي بواتيه) رهينة عندكم حتى يأتيكم المال

طوران: وكيف يدفع النصف الباقي ؟

الملك : يوم أصل إلى عكاء . إني لا أملك الآن شيئاً ولا تملك المملكة إلا قدر ذلك النصف

طوران : ولكننا لا نرضي أن يكون بيننا وبينكم بعد رحيلكم الا المودة التي نرجوها ، وفى انتظار المال شيء من الريبة وقد تذكرون لنا أمراً لم يكن في الحسبان.

الملك : ألا يكفي السلطان وعدى ؟

طوران : اعذرت أيها الملك .

الملك : إذن فليضمنى الأمير بيبرس

بيبرس : (يتقدم) علي ضمان الملك يامولاي . أن للأبطـــال فى

قلوب الرجال ذمة

نحن قوم لايملك العطف منا

قلبنا فى قتال من عادانا

واذا ماقضي الحسام من الها

م مناه بكى الحسام حنانا

الملك : شكراً لبيبرس .

طوران: (حائراً)حسبي منه القسم صوناً لضمانك يابيبرس .

الملك : إذن فأقسم بالله أن أفى لكم بنصف الدين الباقى اذا أنتم أطلقتم سراحي وسراح قومى الأسارى ثم حفظتم لي أقواتى التى فى دمياط حتى آخذها ولم تقتلوا من بها من المرضى . *

طوران : لايكون القسم كذلك أيها الملك .

الملك : فكيف يكون إذن ؟

* كتب التاريخ

طوران : علينا بهبة الله الطبيب . إنه كان فى ملة القوم فهو أدرى
بالمين الغموس .

الملك : اعفنى من رؤية هـذا الرجل أيها السلطان . قل ماتشـاء
وعلى تلاوته . إني أكره رؤية المرتد .. معذرة.

طوران : انه كان يتردد على الملك من قبلى معالجاً فى دار ابن
لقمان فكيف أطقت رؤيته يومئذ ؟

الملك : لم أره وحقك منذ ليلة النجع .

بيبرس : ليلة النجع !!

طوران : ولكنه كان يخبرنى عنك شيئاً كثيراً .

الملك : لقد كان كاذباً .

طوران : ياللعجب ! (مفكراً) قبلت بقسمك أيها الملك . والآن إذ
قضى الأمر فعلى بالخلع ياسهيل . (ينهض لويس ويسير
سهيل الى الباب الأيمن فيتناول الخلع من مملوك ويقدمها
والخلع موضوعة في ربطة مغطاة بالمخمل المطرز بالذهب)
عاطها لصبيح (يعطيها لصبيح) تقبل هذه الملابس لسفرتك
أيها الملك . إن برد البحر شديد . وسأبعث اليك بفراش

لشوانيك التى سنردها اليك .

الملك : شكراً السلطان ، لقد قلدنى منة لاأنساهـا أبداً . الوداع

طوران: (ينهض نصف نهوض) فى سلامة الله .

(يخرج ملك فرنسا وصبيح وسهيل)

محسن : كذا تكون شيم الملوك يامولاى .

أقطاي :لقد أصبح النصر بما فعلت نصرين أيها السلطان .

طوران: (ينزل عن العرش) شكراً لـكم أيها الأمراء . والآن إذ انتهي أمر الملك فلعلـكم ناسون ماقد مضى ذا كروز أنى عند ظنكم .

بيبرس : أطـال الله بقاء مـولانا الملك المعظم طور انشاه سلطان مصر والشام وحامى حمى الاسلام .

طوران : سلام عليكم

الجميع : وعلى مولانا السلام !

(يخرج السلطان من الباب الايمن ويهم بيبرس بالخروج من الباب الايسر)

محسن : أين تذهب يابيبرس ؟

بيبرس : أبحث عن هبة الله ، لقد كان يتمشى مع السلطان
محسن : ولماذا ؟ أتستريبه ؟
بيبرس : أجل .
محسن : ولكنك عفوت عن طوران وقلنا انصف ، أفلا يشمل العفو صحبه ؟
بيبرس : لا أريده لهذا اليوم . إني سمعت الملك لويس يذكر أنه رآه ليلة نجع فارسكور . ماذا كان يصنع هناك ؟ (يعود أقطاى من المشى قائلا)
أقطاى : من ؟
محسن : هبة الله
أقطاى : وى ! بيبرس ! أسمعت ما قال الملك ؟
بيبرس : أجل .
أقطاى : وقد سمعت بعض الأسرى يقولون انه أخذ من برنار صاحب النجع أوراقا ذات شأن ثمنا لحياته — فلما أخذها أغرى به السياف فقتله فيمن قتل منذ ليلتين
بيبرس : سأبعث في طلبه كل رجالى . هلم

الجميع : حسناً (يخرجون من الباب الايسر ويدخل هبة الله من الباب الأوسط ينظر فى المكان)

هبة : أين السلطان ياترى ؟ . أين الأمراء ؟ . تري دس لهم السم في الطعام ؟ الظاهر كذلك . مرحي . إذن فلا حاجة الى الرحيل بها عن هذه الديار . إني سأقبحها له الليلة . وهو كالطفل سريع التصديق . فان أبى سرت بها في ركاب الملك الي عكاء ولن أعدم عفوه عنى . كيف أبلغ رسالة ابن يغمور ؟ (يخرجها من جيبه) ولكن مافائدة جيش الشام وقد قضى الأمر ؟ (يدخل أقطاي فلا يراه هبة الله . واذ يدنو منه يتنبه ويحاول وضع الرسالة فى جيبه ويلتفت أقطاي الى الوراء مشيراً بيده فيلتفت هبة الله) ألا يزالون فى الأحياء ! (بصوت عال لأقطاى) سلام أيها الفارس .

أقطاي : ما تلك بيمينك ؟

هبة : لاشيء (يضعها فى جيبه) رسالة جاءتنى اليوم .

أقطاي : ممن ؟

هبة : من . . .

أقطاى : ممن ؟ . أجب .

هبة : من . . . من صديق لى (هنا يدخل بيبرس)

بيبرس : (يتقدم من هبة الله) أكنت بنجع فارسكور ليلة جئت بالاميرة صفية؟

هبة : (صارخا) أنا ؟

بيبرس : أى أوراق أعطاكها برنار ؟

هبة : (متجاهلا) من برنار هذا ؟

بيبرس : فتشه ياأقطاى . اخرج من جيبه ماتجده من الأوراق

هبة : إنها رسالة خاصة بى أيها الأمير . كيف تطلع على أسرارى؟

أقطاي : هاتها .

هبة : اليكها . (يخرج من جيبه ورقة ويمزقها ثم يرميها على الأرض)

بيبرس : آه ياشقي .

أقطاي : ويل لك يالعين (يميل فيجمع قطع الاوراق ويضعها جنباً الى جنب على أحد الكراسى ويحاول أن يقرأها . ويقف بيبرس ينظر اليه متفرسا مدة ثم يصرخ في وجهه قائلا)

بيبرس : (صارخا) ويحك يالعين . أين صفية ؟

هبة : (يصفروجهه) صفية ! من ذا يدريني أين هى ؟

بيبرس : قل لى اين هي ؟ اني اشم ريحها في ردنك ، وارى شبحها في عينك . قل لى . وإلا قتلتك. إن قلبي لا يخدعني

هبة : ما عهدى بك ظالما يابيبرس . أتأخذ البرىء بالشبهات

بيبرس : يارباه .

أقطاي : (يصرخ فرحا) بيبرس . تعال . اقرأ . (يذهب بيبرس اليـه)

هبة : دعوني اذهب . إنـكم قوم لاتطاقون

بيبرس : مكانك !

اقطاى : (ينهض) ويحك . قف (يهجم عليه) اين ابنتي عائشة ؟ اين التي سميتها مريم (يأخذ بخناقه)

هبه : وي ! لقد أخطأت الرسالة ! قضي الأمر .

أقطاي : أين هي ؟ قل لى أين هي ؟

هبة : إنك أحرقت قلبي على أمها وهى جارية ، ولن تراها .

بيبرس : (ينهض) ويحك ! أين صفية ؟ لقد كانت معها .

أقطاى : يالله !

هبة : ولن تراها أنت أيضا . بعدى الطوفان . اقتلنى تؤجر

بيبرس : (يصرخ صرخة يأس وجزع) يارحمة الله ! (هنا تأتي مريم وصفية من الباب الكبير هادعتين الى الايوان ووراءهما سهيل)

صفية : بيبرس !

مريم : بيبرس !

بيبرس : لبيك (واذ يلمح صفيـة يجري اليها ويحتضنها وتتعلق مريم بردنه) يامالكة اللب إن ربي لرحيم كريم .

مريم : (ترى هبة الله فتجرى اليـه تضربه على كتفه) أين أبى ياقاسى الفؤاد ؟ قل لي أين أبى ؟

أقطاى : (يفتح ذراعيه لمريم) أنا أبوك يامريم ! تعالى ياعائشـة . تعالي ! تعالى (يتهدج صوته ويبكى)

مريم : أنت أبى ؟

بيبرس : أجل أبوك يامريم . أبوك !

مريم : (تجرى الى أقطاى) أبى ! (تحتضنه) وافرحتاه !

أقطاى : تعالي يابنيتي (يأخذها الى المقعد ويجلس فرحا بها)

بيبرس : أين كنت ياصفية ؟

صفية : سل هذا الخائن . سل هذا اللعين (مشيرة إلى هبة الله)

بيبرس : (مشيراً اليه) الى النطع ياسهيل

سهيل : (يجرى اليه فيأخذه قسراً) هلم

صفيه : كنا على وشك الرحيل الى عكاء فى سفينة أعدها لنا هذا الخائن منذ الصباح .

بيبرس : كيف ؟

صفية : لقد اختطفنى مخدرة من منزل الأمير فخر الدين

بيبرس : (يلتفت فيرى هبة الله على وشك النزول من الباب الايسر فيجرى مهتاجا اليـه) إذن فلا ختطفن روحه بيـدى (يقتله عند الباب)

هبة : (صارخا ألما واحتضارا) آه .. آه

أقطاي : (للأميرة) كيف جئت ياسيدتى ؟

صفية : رأيت مريم الملك على الشـاطىء فنادته فجاءنا وردنا الى رحمـة الله !

بيبرس : بل ردك الله إلىّ ياصفية .

(يدخل ملك فرنسا من الباب الاكبر ومحسن من الباب الايسر يتبعه سهيل وإذ يراه الجميع يصيحون)

الجميع : يعيش رى دوفرانس

الملك : يعيش حماة النيـل

يسدل الستـار

وتنتهي الرواية

حقوق هذه الطبعة محفوظه

لحضرة الاستاذ محمود افندي الافندى

رقم ١ شارع قايت باى بمصر الجديدة

وتطلب من حضرته ومن مكاتب الهلال

والمعارف بالفجالة والنهضة

بشارع المدابغ بمصر

